الأعراف والعادات في المغرب

أحمد الطيب العلج



الجزء الأول

منشورات وزارة الشؤون الثقافية

الأعـراف والعادات
في المغـرب

الجزء الأول

بسم الله؛

تمهيد

في بلادنا - المغرب الاقصى - تقاليد وعادات وأعراف كثيرة ومتنوعة، قننت حياتنا الاجتماعية على مدى أزمنة وعصور. وحلت في كثير من الأحيان محل القوانين التي يقوم عليها الفصل والحسم فيما يطرأ بين الناس من خلافات ومجادلات ومنازعات. وعدم الاتفاق على رأي موحد. أو وجهة نظر يسلم بها الجميع. وفي هذه الحالات كثيرا ما كان اللجوء الى العادات والأعراف يفصل بما لا يقبل الجدل في القضايا المعقدة الشائكة. ويحسم فيها بما لا يدع لسوء التفاهم أو الالتباس أي مجال.

وقد تعايش الناس بهذه الأعراف والتقاليد. وهي في جملتها وتفاصيلها مستمدة أصلا من الشريعة الإسلامية.

نعم كان الناس يلجأون الى السادة العلماء . والفقهاء يستفسرونهم ويستفتونهم فيما جد لديهم من اختلافات . أو التبس عليهم من فهم في أشياء لا يفصل فيها بحسم الا العلم، والشريعة وفقهاء الشريعة بالرجوع الى الكتاب والسنة.

ولكن ومع ذلك تعايش الناس بالاعراف والتقاليد والعادات والأصول : هذاجائز، وهذا غير جائز، هذه تكون،

وهذه لاتكون، هذا صواب، وهذا ليس بالصواب. وعلى حد تعبير عامة الناس : «هذى صواب هذى ماشي صواب» هذه تعلمناها من اسلافنا وتلك بدعة ما انزل الله بها من سلطان.

والعادات والتقاليد والاعراف تواكب الحياة برمتها. فهي دين ودنيا فيها الحلال حلال والحرام حرام، سواء بخصوص الحياة الاجتماعية أو بخصوص الوجدانيات. وفيها المقبول واللا مقبول والمعقول واللا معقول، والخروج عن الموروثات والثوابت والمسلمات غير محبب وغير مزكى. وهكذا تعايش الناس في جل الحواضر المغربية وحتى في البوادي في سلام ووئام وتساكن قام على الود وصون العرض وحفظ المتاع ودم الوجه. وتحقق نبل التعايش القائم على الاحترام. احترام الناس واحترام حقوق الناس.

والذي كان يجنح أو يشذ عن هذه القاعدة المثلى كان يلقى مواجهة الجماعة حتى يفيء الى الطريق السوي، وحتى يعود الى مكانه كعود من حزمة «قتة». وبهذا الاتفاق أو الحلف الضمنى تحقق المجتمع المتساكن المتراص المجتمع الواعي الأمثل.

وأعتقد أن الإحاطة بهذه التقاليد والأعراف والعادات أكبر من أن يرصدها راصد أو يحصيها حاص. فهي لكثرتها، وغنى مجالاتها. وتنوع أشكالها. ومراميها وأهدافها تحتاج الى جهود كبيرة وكثيرة، وكفاءات متعددة، وتفرغ الكثيرالكثير ممن لديهم الاستعداد والموهبة لجمعها وتدوينها. وقد أصبحت عرضة للضياع.

ولهذاتساءلت وأنا اتلقى عرض معالي السيد وزير الشؤون الثقافية الاستاذ محمد علال سيناصر بان أقوم بهذه المهمة ـ تساءلت: هل بوسعي انا العبد الضعيف أن أقوم بعملية الجمع والتقصي والتدوين بمفردي. ؟ طبعا كان جوابي : لا ولكن مع ذلك قلت في نفسي : أو لا هذا شرف كبير لي. ثانيا : ما لا يدرك كله لا يترك جله أو بعضه.

ومن هنا انطلقت طالبا من الله تعالى جلت قدرته أن يلهمني السداد والتوفيق. وحسبي من الجهد والبذل فضل المحاولة. والمساهمة في هذا الإنجاز الكبير. بعزم صادق. وحب كبير. وإيمان صامد. وصبر وأناة وثقة وتواضع.

الرباط 1992/10/10

أحمد الطيب لعلج

« شطابة عاشوراء »(*)

إذا كنت من أهل مدينة فاس فلا بد أن تكون قد سمعت بهذه السبة « الله يعطيك الخلا والجلا وشطابة عاشوراء » وهي سبة من أخطر السباب. ولا تستعمل إلا في حالة الاصطدامات التي يصل فيها الخلاف الى الباب المسدود، والشنآن الى أقصى الدرجات من الانفعال والتوتر وفقد السيطرة على الأعصاب والرقيب أو الضابط على اللسان.

ولهول وخطورة هذه السبة تستعمل في بعض الاحيان كحلف وقسم. ومثال ذلك أنك إذا طلبت شيئا ما من أحدهم ولم يكن متوفرا لديه يقول لك : «والله ما بخلت عليك به وليس لدي منه لا قليل القليل ولا كثير الكثير. ثم يضيف : « بالخلا والجلا وشطابة عاشوراء » كما قالت المرأة. ذلك أن هذه السبة أو القسم شيء يخص النساء، وقاموس ألفاظ النساء فقط. وإذا قدر لرجل أن يستعمل هذه السبة بمعنى الشتيمة أو بمعنى القسم لا بد وأن يعقب بقوله : كما قالت المرأة « كي قالت المرا ».

والخلا والجلاء تعني خلو البيت من سكانه، وتعنى أن الموت قد أتى على كل ما فيه ومن فيه فأصبح فارغا خاليا من أهله وذويه، وكأنه كنس من ساكنيه ب « شطابة عاشوراء »

(*) استعمال دارج يعني « مكنسة »

المشؤومة. أو كأن حكما قاسيا قد صدر في حق أصحابه. فرحلوا عنه وتركوه خاليا على عروشه. لماذا لأن مكنسة تعسة منحوسة دخلت ذلك البيت يوم عاشوراء. والمتطيرون وهم كثر، يعتقدون أن «الشطابة» إذا دخلت الدار يوم عاشوراء من بابه لا بد أن يكون دخولها حاملا للشؤم والبؤس والموت والتعاسة وكل مسببات الرجات والصدمات والنكبات والخسارات والافلاس. وعلى هذا ـ وحسب اعتقاد كان شائعا وراسخا عند الكثير من الناس ـ فالمكنسة محرم دخولها للبيت طيلة شهر محرم ـ العاشور ـ تحريما لا هوادة فيه ولارجعة. وإذا تحتم دخولها لحاجة ماسة قصوى فالنوافذ أو السطوح هي المسلك الوحيد. وإذا حدث ـ لاقدر الله – وتسللت فإنها تكون بمثابة نذير شؤم.

فالناس يتطيرون من المكنسة « الشطابة » ويأخذون بكل أسباب الحيطة والحذر، ويعملون كل ما في وسعهم حتى لا تعتب ـ تلج ـ المكنسة الدار خلال شهر العاشور ـ محرم ـ وأعتقد أن لهذا التشاؤم أو التطير صلة ما بكر بلاء ومأساة مقتل الحسين. وهذا ما سأبحث فيه مع من سأتصل بهم في مدينتي فاس ومراكش وباقي المدن التي كان لديها هذا النوع من التشاؤم من «شطابة عاشورا».

المكنسة وحيطة الناس

ونعود للمكنسة وحيطة الناس من دخولها الى بيوتاتهم طيلة شهر محرم « العاشور ». فقد كان الناس عامة يتخذون

كل التدابير لتوفير العدد الكافي من المكنسات، حتى لا يضطر أحدهم لاقتنائها في هذا الشهر أو إدخالها للبيت. ولكن ومع أخذ الحيطة يحدث أن يقع في مغبة السهو والنسيان فيهمل أمر المكنسة حتى إذا أقبل شهر المحرم ـ عاشوراء ـ وكانت الدار في حاجة لمكنسة. وأهل البيت لم يدّخروا لهذا الشهر ولو مكنسة واحدة ـ شطابة مفردة .

وحتمية نظافة البيت تفرض دخول المكنسة. فما العمل.؟ وكيف تدخل المكنسة للبيت ولا يدخل معها الشؤم أو طالع النحس.؟

وهنا اضطرت القريحة الشعبية الى الاجتهاد وإعمال الفكر، وخرجت بفتوى. والفتوى هذه أوجدت الحل الذي سلم به وصفق له الجميع. خصوصا بعد أن جرب وأعطى النتائج الحسنة. فقد جاء من العقلاء النبهاء من يفتي بدخول الشطابة ـ في حالة الضرورة القصوى ـ الى البيت من النوافذ أو السطح. لأن الخطر كل الخطر هو في دخول المكنسة من باب البيت. أما إذا دخلت من الشباك أو السطح فإنها تدخل وقد تجردت بقدرة قادر من كل مسببات الشؤم والتعاسة والنحس.

وبهذه الطريقة المجتهدة المبتكرة أصبح من حق الشطابة أن تدخل البيوت وفي العاشور ـ محرم ـ ولكن من النوافذ والسطوح فقط.

وهكذا تعارف الاعوام على دخول «شطابة عاشوراء» من النافذة أو السطح بدل الباب. فتحفظ البيوت من كل المصائب والكوارث والنكبات التي تتسبب فيها المكنسة إذا دخلت البيت من بابه.

وهذا الحل أو هذه الفتوى ذكرتني بمثل مغربي شعبي فاسي صميم يقول : «احلوف عمي مكوار، حلف ما يشرب في الزلافة شرب فـ الغطار» ذلك أن العم مكوار لما ألح عليه العطش وكان قد أقسم أن لا يشرب، غيروا له الآنية وتحول القسم من الجوهر الى الوسيلة. وسواء شرب «عمي مكوار» في الكأس أو في الصحن أو بأي وسيلة أخرى فهو أقسم أن لايشرب وشرب، لتحريره معنويا على الأقل من مغبة الحنث غيروا له الآنية فناب «الغطار» الصحن عن «الزلافة السلطانية» فأصبح «عمي مكوار» وكأنه لم يقع في الحنث.

المنابر التنويرية

في الوقت الذي كانت تسود فيه هذه المعتقدات الفارغة والتقاليد البالية البليدة، كان علماء القرويين، وفي كل المنابر التنويرية، المنابر التي كانت خاصة بالصناع والحرفيين وعامة الناس ممن هم في غالبيتهم في حكم الاميين. كان العلماء - ومن هذه المنابر - يشنون حربا لاهوادة فيها لتسفيه هذه الخرافات ودحض هذه الخزعبلات، وتنقية الأدمغة مما علق بها من هذه الاوهام والاباطيل

والتطيرات والتشاؤم الذي لا مبرر له. وسيلتهم المثلى في هذه الدروس التنويرية التوجيهية كتاب الله وسنة رسوله. وكانت دعوتهم تقوم على نبذ الاوهام والخرافات، والحث على الايمان بالله وحده لاشريك له، وبآياته البينات حيث قال عز من قائل في محكم كتابه الكريم « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا، وعلى الله فليتوكل المؤمنون »، كانت حملات التوعية قائمة بكثافة وجد في جامع القرويين، وفي جل المساجد التي توجد بها منابر للتنوير والتوجيه لزعزعة المعتقدات الضلالية الخرافية الفاسدة وإبطالها، وتحرير عقول عامة الناس من طغيانها وجبروتها وكوابيسها الجاثمة الراسخة والمعشثة في الادمغة الساذجة البسيطة.

المكنسة والعالم الجليل

وبخصوص التطير والتشاؤم من المكنسة «شطابة عاشورا » بالذات أذكر أنني سمعت الحكاية التي سأرويها فيما يلي، سمعتها من عدد لا يحصى من الناس بديباجات مختلفة وبأساليب في الحكي لا تتشابه إطلاقا. إلا أن الجوهر واحد في كل الروايات. ومفادها أن أحد المترددين من عامة الناس على منبر لأحد كبار العلماء المحدثين البلغاء الفصحاء رأى في يوم عاشوراء وبمحض الصدفة السيد العالم الجليل يطلب من خادمته ان تدلي له حبلا من سطح بيته ليربط به المكنسة حتى لا تدخل بيته من بابه. يفعل العالم هذا تماما كما يفعل عامة الناس. وهذا حقا تصرف يبعث على الاستغراب

والعجب. الشيء الذي جعل ذلك المتردد على منبر السيد العالم الجليل في حيرة من أمره. فأقوال العالم في المنبر لا تطابق تصرفاته في الحياة. اذن فكيف يحدث هذا.؟ أهذا ممكن؟ العالم الجليل السيد فلان الفلاني بذاته وصفاته، بنصه وفصه، بقده ومقدوده، يطلب من خادمته أن تمد له الحبل ليدخل الشطابة إلى منزله من السطح بدل الباب وهو الذي يرفع صوته من على المنبر، منددا بالتشاؤم والمتشائمين، والتطير والمتطيرين، وكل المعتقدات التي لا تستند على الكتاب والسنة. انه حقا لعجب العجاب. أتكون احاديث السيد العالم للناس، كافة الناس لا تخصه ولا تشمله ولا تعنيه؟ أتكون الموعظة للآخرين فقط.؟ وحرية التصرف مما يكفله العالم لنفسه دون رادع أو رقيب أو مراجع.

هكذا تزاحمت الافكار والتفسيرات في ذهن صاحب هذه المشاهدة، وأذهله التناقض الجلي في أقوال وأفعال السيد العالم، فقرر مواجهته واستفساره، فتقدم منه وحياه بما يتوجب من فروض التجلة والاحترام وقال له بادب جم : يا سيدي الفقيه ! أأنت ذلك العالم الجليل الكبير الذي يحدثنا فيسحرنا حديثه، وينصحنا فتبهرنا وتقنعنا نصائحه، وينورنا فنهتدي بأنواره، ويوجهنا فنولي وجوهنا الى حيث يشير علينا، ونصرفها عن كل ما عنه ينهانا، أأنت يا سيدي، أنت أيضا ممن يؤمنون بخرافة : «شطابة عاشورا» كيف تنهى عن التشاؤم وتتشاءم وتنهى عن التطير وتتطير؟!

- لا وأيم الحق لا.
- وكيف تتصرف على نحو ما أرى يا سيدي..؟!
- أتصرف هكذا، وعلى نحو ما رأيت، بضغط من ظروف قاهرة، ولي ما يبرر تصرفي هذا.
- كيف يا سيدي ؟ والله بودي أن أعرف ما يبرر هذا التصرف الغريب منك أنت وأنت بالذات.
- يوجد في بيتي هذا مريض محتضر. نعم في حالة مرضية لا تبعث في الظاهر إلا على اليأس اليائس.

ولا يأس من رحمة الله. على كل حال المريض الموجود في بيتي ينتظر رحمة الله. وحتى لا أجعل موت ذلك المريض اذا وافته المنية وجاء أجله مقرونا أو مرتبطا بدخول المكنسة للبيت من باب البيت، عمدت إلى إدخال الشطابة للبيت من السطح، فضلت هذا الحل، ولجأت الى هذا التصرف حتى لا أمعن في ترسيخ هذا الإعتقاد

- اي اعتقاد ؟
- اعتقاد شؤم الشطابة، المكنسة، وحتى لا أجعل الناس البسطاء في بيتي يصرون على الاعتقاد بان للمكنسة يدا، اي يد في موت المريض المحتضر. ونحن نؤمن بقضاء الله وقدره: «إذا جاء أجلهم. فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون» ولهذا ارتأيت بل وتعمدت أن أدخل الشطابة الى بيتي من السطح، وامام الناس حتى إذا جاءت وفاة المريض المحتضر مقرونة بدخول المكنسة للبيت ـ وبمحض الصدفة ـ لا يمكن بتاتا أن يعزى الموت في هذه الحالة الى

شؤم الشطابة بعد أن يكون قد رآها الناس تدخل البيت من سطحه لا من بابه. وحتى يتأكد كل من هو في حاجة الى تأكيد بأن : «لكل أجل كتاب» وأن الموت والحياة بيد الله وحده، وان الله وحده «عالم الغيب والشهادة» وهو وحده الذي «يحيي ويميت».

- ولكن يا سيدي الفقيه، إن الذي يراك وأنت تتصرف كالعوام في إدخال المكنسة للبيت من السطح، وأنت العالم الجليل المشهور بالجد. والمعروف بمحاربة الشعوذة والدجل، والمعتقدات الخرافية، لا بد وأن يتساءل هل شؤم الشطابة حقيقة لا جدال فيها..؟ أم ماذا؟

- وهذا بالضبط ما قصدت اليه. لأنني أحب أن أثير الأسئلة حول هذا الموضوع، لأننا نستطيع من خلال المساءلات والإستفسارات أن ننور العقول، وأن نفتح العيون على الحقائق الثابتة، وأن ننتهي الى الأجوبة المقنعة الحاسمة المفحمة. المهم عندي ان أثير اهتمام الناس. وأستفز فضولهم ومتى فُتِح باب الحوار والجدل والنقاش أستطيع أن أصل معهم الى إحقاق الحق وإزهاق الباطل وأستطيع أن أجعلهم يميزون بين ما هو خرافي عجائبي قائم على معتقدات باطلة لا أساس لها، وما هو حقيقي يقوم على الحجة والعقل والمقابلة الجدلية التي تنتهي دائما الى ما هو نابع من صفاء الدين، ونقاء العقيدة الحنيفة السمحاء، وجوهر وعمق الرسالة المحمدية الكريمة.

ولا بأس في أن يعمد طالب الحقيقة لأجل الوصول اليها الى كل السبل الممكنة. والى كل الوسائل التي تؤدي لإظهارها واضحة. ناصعة لا يشوبها التباس ولا يكتنفها شك أو غموض.

الشطابة عروسة
والجفافة نفيسة

وبخصوص العادات والتقاليد - وطبعا منها الصالح ومنها الطالح - فإن الشطابة وحتى في حالة دخولها إلى المنزل أو وجودها فيه خلال شهر العاشور - محرم - فهي لا تتحرك يوم عاشوراء بالذات. وشأن الشطابة - المكنسة : هو نفسه شأن «الجفافة» المنشفة. فالتطير من استعمال المكنسة يوم عاشوراء لم يكن مقتصرا على الشطابة بل حتى الجفافة كان يطالها التشاؤم. فتخضع بدورها للتحريم. والمنشفة «الجفافة» هي شقيقة المكنسة وبحكم صلة القرابة هذه، فهما معا لا يتحركان يوم عاشوراء، ويتمتعان بعطلة إلزامية إجبارية.

والشطابة عروسة والجفافة نفيسة تعني في العرف العامي العطلة الإجبارية بكل أبعادها ومعطياتها. فالعروس لا تشتغل يوم زفافها بأي حال من الاحوال، وكذلك المرأة النفساء. ومن هنا جاءت بلاغة التقرير وحتمية شل حركة المكنسة والمنشفة. واذا كتب لواحدة منهما أن تتحرك يوم عاشوراء فذلك نذير شؤم لاشك في حدوثه.

أوراق حول الجورة والجيران

ثمن الجار

مما يحكى عن احترام الجار، وتقدير الجار، وإعطائه ما يستحق من التجلة والاعتبار والإكبار، مما يحكى في هذا الصدد ان أحد الناس اشترى منزلا لسكنه، ولدى تحديد الثمن جاء من ينبهه الى أن السيد البائع قد أضاف الى الثمن المطلوب أو المستحق قدرا من المال لا بأس به، الشيء الذي جعل ثمن المنزل مرتفعا بشكل ملفت وغير مبرر. فما كان من السيد المشتري الا أن يصارح البائع ويواجهه :

- قيل لي يا سيدي انك أضفت الى ثمن المنزل الحقيقي والمستحق قدرا كبيرا من المال، أهذا صحيح..؟
- صحيح
- كيف.. ؟
- فعلا، لقد أضفت لثمن الدار ثمن الجار
- ثمن الجار..؟
- نعم وقد سبق لي ان دفعته قبلك،
- ثمن الجار..؟
- نعم. نعم. ثمن الجار. ويجب ان تعلم انك ستجاور السيد فلان الفلاني وغير خاف عليك - وانت سيد العارفين - ان للجورة والجيران اعتبارات خاصة قد ترفع من قيمة أثمان العقارات أحيانا إلى درجة خيالية. كما أنها قد تخفض من قيمة هذه الأثمان إلى درجات تدعو للعجب والإستغراب.

- إلى هذا الحد.؟
- وقديما قال الحكماء المغاربة الجار قبل الدار.
- الجار قبل الدار ؟
- والمعنى المقصود هو : اشتر الجار قبل أن تشتري الدار. وهنا لا ينبغي ان يغيب عن فطنتك ونباهتك أن هناك أناساً من خيرة الجيران لا تقدر مُساكنتهم بثمن.
- فعلا، الحق في جانبك
- الجيرة يا سيدي الكريم معايشة ومساكنة، ومن تساكنه وتعايشه تصابحه وتماسيه فيجب ان تتحرى الدقة في اختياره. ثم ان مجاورة الناس الطيبين الاخيار تشترى يا سيدي. وتشترى بما تستحق من الاثمان. فالاخلاق الفاضلة والسلوك النبيل والسمعة الحسنة وما إلى ذلك من الصفات الحميدة المحببة، كل ذلك يعدي.
- يعدي.؟
- نعم المعايشة والمساكنة والجورة تعدي إن بالخير وإن بغيره وقديما قيل : «من عاشر أو خالط قوما صار منهم» والسيد فلان الفلاني جار ممتاز. رفيع المستوى وقيمته الحقيقية لا تقدر بثمن. وصدقني لقد اشتريت جورته انت. بثمن زهيد.
- ثمن زهيد.؟
- بالقياس لفضائله المثلى والتي لا تعد ولا تحصى. اسمع يا سيدي الكريم : ليس للجورة الحسنة ثمن سوى الحمد والشكر.

الجار الجديد

الجار الجديد. هو الجار الوارد على الحي أو على الزقاق أو على البيت. والجار الجديد كان يحسب له حسابه، فيستقبل بما يستحق من ترحاب وحفاوة وأيادي ممدودة وقلوب مفتوحة. وأن أورد هنا ما سمعته من حكايات عن هذا الاستقبال للجار الوارد شيء، وأن أسجل ما عشته وشاهدته شيء آخر. وهو في نظري أهم وأصدق وأبلغ.

من ذلك اننا كنا نسكن في درب الحمام، وسط زنقة الخراشفيين، حومة سيدي العواد بفاس. وكان هذا الدرب يحتوي في داخله على ثلاثة منازل : دار الفشوش والساقوط، ودار العلج، ودار بن رحال. أما بخصوص الدار الأولى والثانية فكانتا لإقامة اصحابها ومالكيها. واما دار بن رحال فكانت منزلا للايجار «دار الكرا» بمعنى ان السكان فيها كانوا يتغيرون من حين لآخر. وبحكم هذا التغير كنا نستقبل جوارا جددا. وطبعا كان من الواجب استقبال الجيران الواردين بما يليق من ضروب الحفاوة والترحاب. وهذا ما كان يفرض على السكان القارين القيام بالواجب. وألح على كلمة الواجب إزاء السكان الواردين. ومن ذلك انه وبمجرد ما كانوا يلاحظون الشروع في عملية نقل «الرحيل» والرحيل تعني الحاجيات من فراش وادوات واثاث ومتاع، وكل ما يحتاج اليه الساكن الجديد وكل ما ياتي به. بمجرد ما كانت تلوح في الأفق معالم جار جديد، كانت تهب اليه أيادي

النجدة والحفاوة والترحيب. من ذلك ان الجيران القدماء يتفقون فيما بينهم ـ وبسرعة ـ على أن يتولى كل واحد منهم مهمة تحضير الطعام ليوم كامل للساكن الجديد، الجار الوارد حتى يستطيع هو أن يتفرغ لترتيب اشيائه، والاهتمام ببيته الجديد فيما يحتاج اليه ولدى تقديم الطعام الذي تحمله خادمة أو خادم يقول أو تقول :

- هذا من بيت جاركم فلان الفلاني، وزوجته فلانة الفلانية. وهما معا وابناؤهما يرحبون بكم ويتمنون لكم إقامة طيبة وسكنا مريحا « مرحْبا بجيراننا الجداد ». نعم كان الساكن الجديد يعتبر ضيف السكان القدماء ولمدة ثلاثة ايام عملا بمقولة مشهورة : « ضيافة النبي ثلاثة أيام » وهذا شيء عايشته وشاهدته. كان والدي الطيب العلج وجارنا السيد حمادي الساقوط، وجارنا السيد محمد الفشوش، يتناوبون على القيام بمهمة إحضار الطعام لكل ساكن جديد من صباحه الى مسائه. هذا اذا لم يطلب الجار الجديد أي نوع من المساعدة. أما إذا تقدم بطلب شيء ما، فالجميع كان يهب - وإذا شئت الدقة قل الكل كان يتسابق لمد يد العون والمساعدة بكرم وسخاء وعفوية وتلقائية.

هذا بالنسبة للجار الوارد الجديد وليكن من شاء ان يكون انه جار وكفى، والجار كما يقول عامة الناس : « الجار وصى عليه النبي »

واذكر أن هذه العملية التي رويتها رواية مشاهد، قد تكررت مرات عديدة مع جيراننا من سكان دار بن رحال.

لانها وكما سبق واشرت، كانت منزلا للايجار، وكان سكانها يتغيرون من حين الى آخر. وكل جار وارد الا ويلقى نفس الحفاوة ونفس الترحاب. وهذا ما كان يرسخ آصرة الود بين الجيران. فيقوم التساكن على المحبة والمراعاة والاحترام والمشاركة الفعلية في الافراح والاتراح والتماسك الذي يجعل من الجيران احبابا واقارب.

الجار ولون الواجهة

ومما سمعت من حكايات كثيرة عن احترام الجار واحدة اعترف انها ليست غريبة ولا عجيبة فقط وانما هي اكثر من ذلك بكثير، فقد سلمتني للذهول لدى سماعها.. وتسألني عن هذه الحكاية المذهلة فأقول : قال لي احد سكان مدينة فاس من الرواة الثقاة انه يعرف سيدا من افاضل اناس المدينة كان قد بنى بيتا للسكن يخصه. ولدى الانتهاء من الاشغال فيه جاء وقت الطلاء فاختار الوان الغرف بحسب رغبة ساكنيها من ابنائه وذويه. نعم خير ابناءه وذويه في الالوان. حتى يختار كل واحد منهم اللون الذي ترتاح لرؤيته عينه ونفسه. ولما جاء دور الواجهة ذهب عند البقال وكان دكانه مقابلا لبيته تماما.

- السلام عليكم
- وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته
- انا فلان الفلاني جارك، صاحب ذلك المنزل الذي يقابل دكانك.

- انا متشرف بمعرفتك يا سيدي، والحقيقة انني وان لم يسبق لي شرف مصافحتك والتحدث معك فانا اعرفك. واعرف المرحوم الفاضل السيد الحاج فلان والدك، واعرف اسرتك الكريمة صغيرها وكبيرها. وبالمناسبة اتمنى لك مقاما طيبا في منزلك الجديد واتمنى كذلك أن تكون دار خير ورزق وسعادة وصحة وعافية وبركة، بركة في الرزق وبركة في العمر وبركة في الذرية الصالحة
- شكرا جزيلا. ماذا اقول لك. الواقع انني لم اعرف كيف امهد للدخول في الموضوع
- قل يا سيدي ولا تتحرج، وطلباتك أوامر تنفذ في الحين. قل. قل.
- الموضوع باختصار انني سأشرع غدا أو بعد غد في صباغة الواجهة، واجهة بيتي. وباعتبارك أنت المواجه الفعلي والدائم لها جئت لآخذ رأيك في اللون الذي يرتاح لرؤيته بصرك. أيّ لون تقترح علي يا سيدي.؟
- ماذا اقول لك يا سيدي؟ البيت بيتك. وانت حر في أن تختار له ما يناسب ذوقك من الالوان.
- ما اراه من بيتي وداخل بيتي يخصني، اما ما تراه انت فيخصك انت. أو ليس في هذا ما يدعو للعجب حقا، بل ويسلم للذهول، ويدعو حتى لعدم التصديق. لان الجنوح للخيال في هذه الحكاية اقوى من الإنتماء للحقيقة ومع ذلك. وحتى في غلبة الخيال على الحقيقة فإن استخلاص العبرة من هذه الحكاية هو : احترام الجار وعواطف الجار والعمل على الحفاظ على علاقة الود. والجورة المثالية

الممتازة والتي تقوم على اسس متينه من الاحترام والمراعاة و«للمراعاة» ثوابت ومعان عند عامة الناس، وفي مقدمة هذه الثوابت والمعاني : بذل المحبة، واحترام المشاعر، واجتناب كل ما من شأنه ان يسيء لقاعدة التعايش والتساكن بين الجيران.

شقة فرح. وشقة مأثم

عندما استمعت الى الحكاية السالفة، رجعت بي الذاكرة الى ذات صباح حيث كنت قد اتجهت لزيارة صديق حميم، فوجدته منفعلا متوترا وقد حجبت انفعالاته بسمة مشرقة رائعة كانت تلازمه في جميع الاحوال وفي كل الظروف. بسمة مثلت على الدوام جزءا لا يتجزأ من محياه الصبوح، فقد كان هذا الصديق الرجل الباسم باستمرار. وقد هالني ان اجده عابسا فقلت له:

- ماذا حدث..؟ واين هي ابتسامتك الحلوة المتفائلة؟
- ذهب بها الخجل الذي تخلى عن بعض الوجوه. (ثم اضاف متدفقا وكأنه كان ينتظرني ليقص علي سبب حلول العبوس في وجهه محل الابتسام): بالامس حضرت (وألح على كلمة حضرت) لتتأكد ان ما سأقصه عليك شاهدته بعيني، عشته. نعم حضرت حفلة عقد قران بشقة في عمارة. وعلى صغر الشقة النسبي فقد كان هناك حضور مكثف لعدد غير قليل من احباب واقارب العروسة والعريس. كما كان هناك طرب وغناء و«جويق» صغير

الحجم كثير الضجيج، وكانت مظاهر البهجة والفرح والمسرة هي سمة الاحتفال التي ملأت جنبات الشقة، والى هنا وكل شيء يبدو عاديا وطبيعيا. ولكن لدى وصولي الى العمارة، وطلوعي في المصعد الى الطابق المعين، دخلت ـ خطأ - الى شقة اخرى. هي ايضا كان فيها احتفال ولكنه لم يكن فرحة بعروسين زفا لبعضهما. وانما هو احتفال باليوم الثالث لوفاة عزيز، لوفاة جار. فقد عوضت فيه جوقة المادحين والمنشدين وقراء القرآن الكريم. الجوق والموسيقى والغناء والرقص والتصايح. ولما جلست وبدأت أتصفح الوجوه، وجدتني غريبا في هذه الشقة. فتقدمت من أحد الزوار وسألته وأنا مرتبك، عن شقة السيد فلان، فقال لي إنها الشقة المجاورة. ثم بدأت ألتمس طريقي للخروج معربا عن أسفي بكلام مبهم وانحناءات مضطربة ومصافحات بلا حرارة. واتجهت الى الشقة المقابلة المحتفلة بكل ما تحتويه كلمة الاحتفال من معاني البهجة والمسرة والفرح بضجيجه وعجيجه وتصايح «النكافات» ـ السيدات المكلفات بالاهتمام بالعروس من لباسها وتزيينها الى الدوران بها صحبة العريس على الحاضرين التماسا للاعجاب والتصفيق وتقديم التهاني وهن ينشدن اغنيتهن المشهورة : «الصلاة والسلام على رسول الله، لاجاه الاجاه سيدنا محمد، الله مع الجاه العالي» النشيد الذي يصطلح على تسميته بـ «التثقيل» والذي تعقبه الزغاريد. نعم هكذا كانت شقة الاحتفال بعقد قران العروسين. الفرح في أوجه والضجة

في أوجها. وفي الشقة المجاورة الترح بأعمق سمات الحزن والألم والبؤس. وبالتناقض الذي ماكنا نعرفه، أو حتى نسمع به. فقد كان الجار اذا حدث مكروه في بيت جاره يرجئ كل حفلات أفراحه الى أن تمر فترة زمنية معينة «فترة الوقر» وفترة الوقر هذه قد تطول وقد تقصر حسب اعتبار أهمية الحدث ومدى كبر الرزء والنكبة أو الضياع فيه. و«للوقار» حديث تفصيلي لاحق ـ عن اسبابه وطقوسه ومقتضياته وطرق تطبيقه. وهو في جوهره لا يعدو أن يكون نوعا من المواساة والمجاملة واحترام شعور الآخرين.

قلت لصديقي :

- ولكن الفرح وبمناسبة عقد القران بصفة خاصة حق والمناسبة تقتضيه.
- ومن يجادل في هذا.؟ الفرح حق، نعم.. ولكن اذا اقترن بأتراح جيراننا كان من الواجب علينا أن نرجئ حفلة العرس، أوْ نغير مكانها في حين ليس بوسعنا أن نرجئ تشييع جنازة أو دفن ميت. وهذا النوع من المجاملات كان قائما بل كان من صميم عاداتنا وتقاليدنا. ماكان يجوز للجار ان يقيم حفلة زفاف أو عقيقة أو أي حفلة وبأي مناسبة أخرى وجاره منكوب في عزيز أو عزيزة. نعم لا يمكن للأفراح أن تجاور الأتراح. بيتان متحاذيان متجاوران : في الاول «عرس» وفي الثاني «هرس»، وحتى ونحن اطفال صغار عندما كنا نبالغ في الصياح

والضجيج واللعب على السجية كنا نسمع الاستنكار من ذوينا مقرونا بهذه العبارة : «ماهذا؟» العرس في دار جيراننا». ومعنى هذه المقولة المجازي انه لا يحق لنا ان نظهر أي نوع من مظاهر الفرح وجيراننا في حالة حزن واسى واحترام شعور الجيران نوع من المشاركة والمواساة كما أن «العرس في دار جيراننا» تعني ايضا حتمية المشاركة في الافراح والأتراح. اما ان يكون في نفس العمارة وفي نفس الطابق شقة فيها حفل زفاف وفي الآن ذاته شقة اخرى فيها جنازة، فهذه بدع ما كنا نعرفها أو نسمع بها. بدع لا تمت لأصالتنا بصلة. نعم يا صديقي حزنت وأنا اقف على هذه الظاهرة بنفسي : ظاهرة اللامبالاة. ظاهرة التنكر للجميل من عاداتنا وأعرافنا. وللمجاملة والمشاركة أصول متجذرة في تقاليدنا، وأنا أعرف حق المعرفة انه كانت ترجأ الحفلات احتراما لحزن جار في الدرب أو الزقاق أو الحي. وقد تكون المسافة الفاصلة بين المنزلين كبيرة وغير موجبة لهذه المشاركة في «الوقر» ومع ذلك فقد كانت الاصول تحتم هذا «الوقا ر» والذي هو نوع من المواساة والمشاركة والاحترام، فاين نحن من اخلاقيات اسلافنا.؟ ونزعم اننا تحضرنا، والله لو لم اقف على هذا الحدث بنفسي، ولم اشاهد هذا التناقض بأم عيني لكذبت إمكانية حدوثه..؟ قد لا يكون هذا امراً ملفتا للنظر عند اناس اخذوا من حضارة القرن العشرين قشورها، أناس غلبتهم انانيتهم وملكتهم العجرفة فحصروا كل شيء في ذاتهم، وحكموا على

الاخرين بالإلغاء. ورحم الله جدتي «للا زهور» فقد كانت تقول لجدي دائما عندما ترى من البدع ما لا يجوز ولا يباح : آن لنا ان نرحل يا عمر..

- اذن هذا هو سبب عبوسك هذا الصباح.
- صدقني اذا قلت لك انني لم اذم وانني تألمت كثيرا لما عاينت ظاهرة الانفصال والانسلاخ وقد بدأت تحل محل الترابط، والتماسك، والتكافل والمواساة، والاخذ بيد الجار، والوقوف الى جانبه في السراء والضراء.

جاري يا الساتر عواري

جاري، يا من يتولى عوراتي بالستر. يامن يغض الطرف عن عيوبي اذا اكتشفها وعن نقائصي اذا بدت له. وعن ضعفي اذا اتضح له انني ضعيف. وعن شذوذى اذا ايقن انني شاذ بطبيعة تكويني. وعن سيئاتي كلها، اذا تأكد انني صاحب مساوئ لا تعد ولا تحصى. جاري يامن تكل عيناه حتى لا يرى بهما إلا حسناتي وان لم تكن لي حسنات. جاري يامن لا يجعل من سيرتي - وهي شيء يخصني وحدي - مرتعا خصبا للشتيمة والنميمة والتشنيع، وهو وحده الذي يعرف عني كل ما يجهله الآخرون، أو كل ما لم يقولوه.

الجار غطاء الجار

فهو بحكم المساكنة والمعايشة يراه يوميا ويسمع منه وعنه يوميا. يكاد لا يخفى عليه من امره أي شيء. يعرف

خيره وشره، كرمه وشحه، سعته وضائقته، صحته وسقمه ويعرف عنه ظروف الانفتاح وظروف التقوقع. سعادته اذا ابتسمت له الايام. وشقاؤه اذا تكالبت عليه الظروف. وفي هذا المعنى قال المغاربة : «جاري يا مرايا، إذا ما شاف وجهي يشوف گفايا»، جاري مرآتي، اذا لم ير وجهي يرى قفاي. وهذا تأكيد على ان جاري لا يخفى عليه من أمري أي شيء. فإذا ساءت نفسه عراني .واذا عفت نفسه غطاني. يارب اجعل جاري عفيفا كريما ولا تجعله سيئا كريها. سيما وعلى زمننا ـ وهو الامس القريب ـ وزمن اسلافنا وهو الامس البعيد كان الكرماء هم الذين يمثلون القاعدة الثابتة، واللئام هم التحول والاستثناء.

فماذا حدث في هذا الزمن القاسي العجيب الغريب.؟ لقد غاب «الوفي» وضاع التودد والمحبة والاحترام. وتخلت عنا جل المكارم من حسنات الفعال والاقوال، فقد كان جار الامس شريكا لجاره في أفراحه وأتراحه. وبمقتضى هذه الشراكة كانت ترجأ الافراح الى أن يتم تضميد جراحات الأتراح. وكانت القاعدة المعمول بها ـ والملزمة ضمنا ـ هي : ما يفرح جاري يفرحني وما يحزنه يحزنني مهما تباعدت مسافة الجيرة. ولهذا كان الناس يولون اهمية بالغة لمسألة اختيار الجار. كان يسأل عنه قبل أن يباع أو يؤجر له وكأنه خاطب أو نسيب يطلب القرب والمصاهرة.

حكاية مع جيراننا

عشت حكاية مع جيراننا من آل السيد عبد السلام بنيس. اثبتها كما عشتها بلا ديباجات ولا مزينات ولا زخرف ولا اضافات. فقد كان والدي رحمه الله يملك دارا في درب الحمام زنقة الخراشفيين حومة سيدي العواد بفاس المدينة العتيقة. كنا نسكنها ابي وأربعة من اخوته والكل متزوج وله اطفال. ومن اعمامي من كان متزوجا بثلاث نساء. وباختصار كانت دارنا مليئة عامرة تعج بالسكان. وفجأة دخل الموت الى هذا البيت الكبير فأخذ يحصد الى أن أتى على الكثير الكثير من سكانه. الشيء الذي جعل والدتي - رحمها الله - تتشاءم. فبدأت تطلب من والدي - وبإلحاح - الرحيل من هذه الدار التي اصبحت شبه فارغة. فلم يكن من والدي الا ان قبل على مضض .

وهكذا انتقلنا الى دار الكرافس الموجودة بدرب الدرمامي قرب النجارين لنسكن ولاول مرة مع الجيران. استأجر والدي الطابق الأسفل من المرحوم السيد عبد السلام بنيس الذي كان هو المستأجر المباشر من رب البيت السيد الكرافس. فقامت بين والدتي زهور اللبارية وزوجة السيد عبد السلام بنيس السيدة السعدية جسوسة علاقة ود ومحبة متينة قامت على التفاهم والانسجام والاحترام، الشيء الذي جعلنا ، وبعد مدة وجيزة من التساكن والجورة نندمج ونتداخل حتى اصبح طعامنا واحدا ومشربنا واحدا. نلتف

جميعا على مائدة واحدة. نلتف حول طاجين بنيس وطاجين العلج. وكم كان يحلو لوالدتي وجارتنا ان ينسب الطاجين لهما بصفتهما الطاهيتين. فنقول : هذا طاجين اللبارية وهذا طاجين جسوسة. واعترف ان الطواجين لم تكن مترفة كما لم يكن المقصود من الطاجين نوعية الاكل أو محتواه، وانما كان المقصود الاول والاهم هو الألتفاف حول مائدة واحدة وكما يقول المثل المغربي : «داخل الكرش. خارجها»

ولم تكن عملية الالتفاف حول مائدة واحدة مسألة عابرة مما يصطلح على تسميته أو نعته بـ «المحبة الزربانة مفرقة على ليام» وتعبير هذا المثل : المحبة المستعجلة تتبخر بسرعة مع مرور الايام. وانما ظل هذا الالتفاف حول مائدة واحدة قائما بنفس الحرارة والحفاوة والتلقائية والعفوية والبساطة والعمق الى أن غادرنا جميعا دار الكرافس تنفيذا لرغبة المالك. عبد السلام بنيس. اتجه هو لمنزل من ممتلكاته ونحن رجعنا الى دارنا بالخراشفيين. وبقيت العلاقات طيبة ومستمرة لا تنفصم لها عرى. التزاور دائم مستمر. المشاركة الفاعلة في كل المناسبات. تبادل الهدايا وكأننا احباب وأقارب والواقع أننا كنا أكثر من الاحباب واعمق ارتباطا من الاقارب. افراحهم افراحنا وما ينوبهم يخصنا. وعلى عهد هذه الجورة النبيلة اذكر ان السي عبد السلام هذا كان يملك ضيعات كثيرة في قرية «لمطة» على بعد خمسة عشر كيلومتراً من مدينة فاس : وكان جارنا هذا يحب الاقامة في البادية خلال فصل الربيع والاقامة في العزيب، والعزيب هو

اسم الضيعة «الفيرمة». شيء كان محببا لاهل فاس من الطبقة الميسورة بصفة عامة : وكان السي عبد السلام يستدعي والدي وبالحاح ما بعده الحاح للذهاب معه الى الضيعة قصد «النُّزَاهَة» الا أن هذه النزهة كانت تستغرق شهرا كاملا : كانت تجهز للانتقال من فاس الى «لمطة» الجياد والبهائم والبغال لنقْل الناس والفراش والامتعة وكل الحاجيات لتكون الاقامة طيبة ومريحة في «العروبية» اي البادية. ويتم اختيار البغال والحمير والجياد بكل دقة وعناية حسب امكانية كل راكب وقدرته على الامتطاء. وبهذا الخصوص كان السي عبد السلام يتولى بنفسه الاختيار بخصوص الجواد لوالدي. الجواد المسيس الهادئ غير المتمرد أو الجامح. فكنا نقضي هذه العطلة الربيعية أو «النزاهة» كأمتع ما تكون العطل. وليس المهم عندي في سرد هذه الحكاية النزهة، أو ما يتخلل النزهة من «زردات» ومأكولات ومشروبات. وانما المهم عندي هو اظهار عمق المودة التي كانت تحكم علاقات الجيران. وشيء آخر. هام وحيوي وذو دلالات خاصة وعميقة، ذلك ان والدي وبعد مدة طويلة من مغادرتنا لدارنا استطاع وتمكن وبعد جهد جهيد من اقناع والدتي بضرورة العودة الى منزلنا الفارغ. فلا معنى لان نترك منزلنا مهجورا على سعته وكبر فضاءاته ونستأجر مسكنا آخر بدافع من تشاؤم وتطير لا مبرر لهما. ثم ان هذا تبذير واسراف والتبذير حرام. ولعله كان هناك دافع آخر مما حتم عودتنا الى منزلنا ويتمثل في أن والدي كان يعاني من ضائقة مادية.

ولما علم السيد عبد السلام بنيس بنية والدي في العودة للسكن في دارنا ذهب عنده لدكانه وهو يحمل المصحف الكريم وقال لوالدي :

- عمي الطيب، أصحيح أنك تنوي العودة الى السكن بدارك
- نعم صحيح.
- وهل صدر منا تصرف في حقكم جعلكم تزهدون في مجاورتنا ؟
- ابدا. معاذ الله. وانما...
- وانما ماذا ؟ عمي الطيب جئتك اليوم وبيدي كتاب الله. اتوسل اليك بآياته الكريمة وانت تستظهره. ان لا ترد لي طلبا.
- طلبك امر اذن يا سيدي عبد السلام. وامر نافذ. لا أتردد في تنفيذه. فما هو طلبك.؟
- ان تظل جاري.
- والى متى؟
- الى ان تستقيم الاحوال. فماذا يقول عمي الطيب؟
- طلبك امر نافذ. وانا جارك الى ان تستقيم الاحوال
- شيء آخر.
- بخصوص ماذا ؟
- بخصوص الإيجار. ابتداء من هذا الشهر لن آخذ منك فلسا واحدا وارجوك ان لا تراجعني في هذا التصرف كما رجوتك ان لا تحرمني من مجاورتك. فانت لم تعد جاري. وانما انت أخ لي لم تلده أمي وهكذا بقينا جيرانا نسكن دار الكرافس الى أن فرغناها جميعا كما اسلفت نزولا

عند رغبة صاحبها. وما تزال لحد الآن تربطني انا واخوتي علاقة ود ومحبة مع جيراننا القدامى من آل بنيس الى الآن وقد مضى على هذه المساكنة والمجاورة أكثر من نصف قرن من الزمن. نعم هذا واقع عشته ومازلت اتلذذ بفتراته الجميلة الرائعة كلما تذكرته لأجد فيه عزاء للنفس لبعض ما أرى اليوم من نزوعات التباعد والتنافر وطغيان الفردية والانانية والكبْر والتعالي وحصر الاهتمام في «الأنا» وما يحوم حول «الأنا» من عجرفة بغيضة وغرور مقيت.

سلفونا طاجينكم

عندما قرأت حكايتنا مع جيراننا من آل بنيس على بعض الاصدقاء. لم يصدقوا ما جاء فيها من معاني الجورة، الجورة المثالية فقط، بل أخذ كل واحد منهم يقص علي حكايات مماثلة مشابهة، ومنها حكاية «سلفونا طاجينكم» اعيرونا طاجينكم للنجدة ومضمونها : انه كان من المتعارف عليه والمعمول به تبادل استعارة الطواجين الجاهزة بين الجيران في حالة الطوارئ. وهذه العادة الجميلة الرائعة والتي تحمل كل معاني التآزر والتعاضد والمساندة كانت تتجلى في تطبيق عملية: «سلفونا طاجينكم». وبعض تفصيل ذلك انه كان يحدث أن تقرر اسرة ما، ولسبب ما، وفي يوم ما تقرر ان لا تجهز طعاما وان «تقضي وتعدي» ومعنى تقضى وتعدي هنا ان الاسرة قررت ان تتغذى ذلك اليوم بما تيسر فقط. بما

هو موجود في البيت من زيت أو زبدة أو سمن أو تين وزيتون أو «خليع» – وهو لحم مصبر. تفنن المغاربة في تحضيره واعداده – أو يتغذون بأي طعام آخر مما لا يحتاج الى أي وقت أو جهد في تهييئه وتحضيره. وقد يكون الخبز والزيتون وقديما قال المثل المغربي «الخبز والما ما يخلي على القلب غمة» أي بوسع الانسان اذا تحلى بالقناعة وتسلح بالصبر أن يسد الرمق بقليل القليل. ويقمع جوعه بالخبز الحاف أو بالخبز والماء.

وهذا ما كان يحدث في حكاية : «سلفونا طاجينكم»، فإذا فوجئت الأسرة في يوم تقشفها بالضيوف. اذا أقبل عليها ضيوف هادفون، لم تكن تنتظر مقدمهم ولم تستعد، ولم يكن عندها استعداد لاستقبالهم والحالة انها في يوم تقشف و«قضي وعدي» : إنه فعلا مأزق والضيوف قد هدفوا . وهدف الضيف تعني مجازا في اللغة العامية المغربية : أقبل، جاء فجأة وعلى غير انتظار أو توقع. فما العمل ؟ وكيف تتصرف هذه الاسرة ؟ بأي سلاح تواجه هذا الضيف؟ ويجب ان لا يغيب عنا. اننا نتحدث عما كان يحدث في فترة ما قبل وجود الثلاجة أو المجمدة «الكونجلاتور» أو أي وسيلة أخرى مما يمكن ان تحفظ فيه الأطعمة أو تذخر اللحوم والمأكولات. وحتى ماكينات طحن الكفتة لم تكن موجودة. الكفتة التي اصبحت فيما بعد تكون طعام النجدة وطبق الإغاثة في مثل هذه الحالات، حتى سماها بعضهم «فكاكة الوحايل مناعت الرحايل» اعتبارا ليسر وسرعة اعدادها. نعم حتى تحضير

الكفتة كان معقدا الى حد ما فقد كانت تدق تفرم في القرطة بواسطة معلمين وساطورين وكانت عملية دقها تستغرق وقتا طويلا وجهدا لا بأس به، اذا فما العمل والضيوف قد «هدفوا» ؟ الحل الوحيد الذي كان متفقا عليه، ومعمولا به ـ ضمنا ـ في هذه الحالة بين الجيران هو : «سلفونا طاجينكم» و«اليوم علينا وغدا عليكم». والخير بين الناس «سلوفات». يا جيراننا الكرام اعيرونا طاجينكم. فقد جاءنا ضيوف وليس لدينا مما يؤكل ما نقدمه لهم. النجدة يا جيراننا وقديما قال اجدادنا : «اللي ما عنده نار يسلفها من عند جاره» وهذا هو الحل الامثل في مثل أو شبه هذه المواقف. ونلتمس منكم ان «تحمروا» وجوهنا وترفعوا رؤوسنا. وفي مثل هذه الظروف كان الجيران يهبون لنجدة جيرانهم بالطنجرة برمتها كاملة غير منقوصة، ليكون في وسعهم ان يقدموا لضيوفهم الهادفين طعاما مناسبا وكأنه اعد بمحض الصدفة للحفاوة بهم واستقبالهم. وهكذا ينتقل التقشف من أسرة استعدت له الى اسرة لم يكن في حسبانها. نعم لقد انتقل الطاجين من شقة الى شقة، أو من منزل الى منزل، مهما تباعدت أو تقاربت المسافة الفاصلة بينهما.

وتتم هذه العملية في جو يطبعه الحماس والرضى. وعلى الرغم من انها نجدة اضطرار فلم تكن مغلفة بأي نوع من الحرج أو التأفف والتضجر الذي يفرضه سيف الحياء الذي هو كسيف الغصب . وإنما هي نجدة تودد متطوعة، مجيبة متحمسة، سخية كريمة تطبعها روح الايثار ويمليها جود

متأصل نبيل عريق. يجل الواجب ويقدسه، ويجعله فوق كل اعتبار.

وهكذا كان الطاجين يشد الرحال من سكن الى سكن أو من دار الى دار بطريقة عفوية، بسيطة تلقائية، وكان الذي يتفضل باعارة طاجينه يتقشف ـ مكرها ـ فيكتفي احيانا بالخبز والماء. الا أن أهم ما في عملية : «سلفونا طاجينكم» هي انها كانت تتم في سرية تامة أو كما يقولون من «تحت ستة وستين قدم» وبعيدا عن كل منٍّ وأذى. ومن يناصر جاره بطاجين «عاقل» وقت الحزة ينتظر طبعا أن ترد له المناصرة بافضل منها. والطاجين العاقل هو ذاك الذي يطبخ بمهارة وينفق على لَمِّ عناصره بكرم وسخاء. وطاجين بعقله «في عرف الذوقية من رواد الزردة المغاربة هو ذاك الذي جمع فاوعى أو هو الذي اجتمع فيه ما افترق في غيره مما لذ وطاب.

«خبز السوق، ما ينفع غير البراني»

كان الجار اذا أتى الصباح واكتشف ان الخبز قد نفد من البيت، لم يكن يلجأ للسوق لشراء خبز السوق بل كان يتجه مباشرة في طلب الخبز من جاره، يمد له اليد بلا تكلف ولا حرج. وخبز السوق يحضر فقط من أجل البراني، ولسد حاجيات الزوار والواردين من الناس الذين يتوافدون على المدينة من الضواحي أو من مدن اخرى. ثم ان خبز الجار في

حالة نقصه أو غيابه يعوضه وينوب عنه خبز الجار وطلب الخبز أو ما عدا الخبز. شيء عادي وطبيعي بين الجيران الذين ما كانوا يترددون أو يتلكأون في مدٍّ يدِ العون والمساعدة لكل جار في حاجة لعون أو مساعدة، شعارهم الدائم : ان لا يبخلوا بالموجود ولا يرهقون انفسهم في طلب المفقود. ثم ان طلب الخبز يمكن ان يقتصر على نصف خبزة، أو حتى كسرة ولا حرج و« خبز السوق ما ينفع غير البراني » مثل له تفسير آخر. فأنت مثلا اذا كنت في حاجة لحبيب أو قريب أو صديق وطلبت عونه فتملص أو تلكأ أو تخلى عنك بالمرة ولم يستجب لطلبك، في الوقت الذي يتطوع فيه هذا الحبيب القريب الصديق لمد يد المعونة والمساعدة لأناس قد لا يعرفهم ولا تربطه بهم أية صلة وقد يكونون في غير ما حاجة لمساعدته أو عونه، في هذه الحالة بالذات نقول عن هذا « الحبيب » انه : « خبز السوق ما ينفع غير البراني » خبز السوق في خدمة الغريب.

« الجار للجار. رحمة »

نعم كان الجار لجاره رحمة، وأنا ـ العبد لله ـ منذ ان بَدَأَتْ تعمل عندي حاسة السمع بانتباه خاص، وإصاخة ممعنة في الخصوصية واذني تلتقط هذه المقولة التي كانت شائعة جارية على كل لسان وكأنها نوع من الترتيل والانشاد. فالجار هو السند وهو المدد، وهو الرفيق والصديق والاخ والعضد الامين والركيزة وهو المتكأ. وهو بالتالي من نلوذ به ونرجع

اليـه في ازمـاتنـا باليـد المـدوة لنجـد عنده القلب المفتـوح، جـاري هـو اقـرب النـاس إلي وأعـرفـهم بأحـوالـي. جـاري هـو المتغاضي عن سيئـاتي مهما كثرت والمنوه بحسناتي وان لم تكن لي حسنات فهو قادر على خلقها وتكبير حجمها والنفخ فيها من روحه الطيبة والطيبوبة في جوهرها رحمة.

جار الدار وجار السوق

وفعلا كان عندنا جار الدار، وجار السوق بالأمس كما هو الشأن اليوم ولكن شتـان مـا بين جيـرة الامس وجيـرة اليـوم. واذا كانت جورة المساكنة تتسم في مجملها ببعض ما اسلفنا الحديث عنه ـ الا من بعض الاستثناءات ـ وطبعا لكل قاعدة استثناء، فان جيرة المتاجر او المعامل وخصوصا منها تلك التي كانت توجد في الاحياء الشعبية، فقد كانت هذه الجورة تحكمها قواعد وضوابط واعراف تشبه القوانين غير المكتوبة. وعلى الرغم من ذلك القـول الشـائع الذي يسلم بمبـدأ : «الحوانيت متصافة والارزاق مختالفة» بمعنى ان الدكاكين متجاورة وفي صف واحد، إلا أن الإقبال عليها والتعامل مع اصحابها يخضع بالدرجة الاولى لرغبة الزبناء انفسهم، ومدى تعاطفهم مع الباعة من اصحاب السوق. وهكذا تختلف الارزاق باختلاف اذواق المتبضعين من المشترين والمتسوقين، مما يترتب عليه ان نجد في السوق الواحد دكانا فيه حركة ورواج، ويبيع الكثير الكثير من السلع والبضائع وبجانبه دكان آخر، سيمته الركود وطابعه الكساد. واذا كان هذا امراً

مسلماً به وقاعدة يعمل بها طيلة النهار فهي ايضا قاعدة خاضعة للاستثناء، والاستثناء في هذه القاعدة يتمثل عند الباعة من اصحاب السوق في المعاملات الصباحية. فاذا اقبل زبون وسال صاحب الدكان عن ثمن بضاعة من البضائع، وكان صاحب الدكان قد باع شيئا لزبون آخر ذلك الصباح. يوجه الزبون الثاني لدكان جاره قائلا : البضاعة موجودة عند جاري بنفس النوعية، ونفس الثمن، واذا سأل الزبون.

- لماذا توجهني الى جارك، وانا زبونك أنت؟ لماذا تصرفني وأنت محل ثقتي؟
- الصراحة أنني استفتحت.
- استفتحت ؟
- بعت بضاعة ما. وأمسكت الدراهم. ولن اتعامل مع زبون ثان إذا طلب بضاعة موجودة عند جاري. الا اذا استفتح هو أيضا. أي باع شيئا ما وأمسك الدراهم. تلك هي عادتنا في هذا السوق، ولربما في جميع أسواق هذه المدينة. يجب ان يستفتح الجميع. و«كبير البطن يتفرقع».
- وماذا يربطك انت أو يفيدك باستفتاح الجار ؟
- الجورة التي اوصى بها النبي العربي عليه أفضل السلام.
- ولكن «الحوانيت متصافة والارزاق مختالفة»
- ومع ذلك لايحق لي ان احتكر الزبناء. وجاري لم يفتتح بعد. شيء يتنافى مع ابسط قواعد الذوق واللياقة.
- وجارك، لو أنه باع شيئا قبلك اقصد لو أنه استفتح، اكان يتصرف كما تصرفت معي انت !؟ أكان يوجه زبونه

الثاني لدكانك أنت ويمتنع عن التعامل معه على نحو مافعلت معي أنت؟

- بكل تأكيد. تلك اخلاقيات أناس سوقنا. انها قواعد تحكم روابطنا ومسلمات نلتزم بتطبيقها جميعا. ولا يحيد عنها أو يشذ الا اللئام. ومن فضل الله علينا، لا يوجد في سوقنا أي لئيم، أو مخل بأعرافنا. وحتى زبناؤنا يقدرون مواقفنا ويفهمون ويتصرفون على نحو ما تمليه أعرافنا.

«طاميم»

وهناك ما هو أهم وابلغ من التنازل عن زبون.

- مثلا:
- عندما ينكب تاجر بخسارة فادحة، أو يصاب بمرض مزمن، أو تحل به أزمة من أي نوع كانت، تجد جيرانه جميعا وقوفا الى جانبه، الوقوف المخضب بالمساندة الفاعلة ماديا ومعنويا، الى ان تستقيم احواله ويعاود هو الوقوف وحده على قدميه من كبوته.
- تتضافر جهود الجوار جميعا..؟
- كلهم كبيرهم وصغيرهم، تجار السوق قاطبة. واحيانا تهب يد النجدة حتى من الاسواق المجاورة، والاسواق البعيدة.
- وما هي الحالات الملزمة لهذا التضامن، الحالات التي تحتم تضافر الجهود؟
- حالة النكبات المتنوعة، والازمات التجارية، من غلاء وكساد وحرائق وتملص أو افلاس بعض المديونين. وكذلك

الخسارات التي تنتج عن التقلبات التجارية والمناورات والمضاربات الاقتصادية التي تحدث الخلخلات المذهلة في الاسواق والتي يسقط في مخالبها الكثير من التجار من ذوي الخبرة المحدودة والتجربة المبتدئة والغير المتمكنة من قواعد اللعبة التجارية، وفذلكات الطلوع السريع والهبوط الاسرع في الاسواق. واحيانا يسقط في فخاخ المضاربات حتى التجار الكبار من ذوي الخبرة والمهارة والتجربة فيصبح التاجر الكبير مفلسا، والغني فقيرا معدما ومن كان بالامس «رأسا» اصبح اليوم «رجلين» والدهر قُلّب.

- الى هذا الحد تتقلب الاحوال.
- نعم، وانا كنت اسمع من بعض التجار الكبار، وهم يسدون النصح للتجار المبتدئين الصغار «التجارة بحر، داخله مفقود، والخارج منه مولود» والويل لمن لا يحسن السباحة في البحار الهائجة، ولا يستطيع مصارعة الامواج المعوجة الملتوية العاصفة.

كاغيط العدم (وثيقة الافلاس)

وفي التجارة هزات تقلب الاوضاع احيانا رأسا على عقب وبعنف. وفي فترات الهزات الاقتصادية هذه وخلال ايام شطحات الأثمان وعدم استقرارها تبدأ المخاتلات التجارية وتنشط قرائح المتلاعبين من شياطين الانس الشيء الذي يؤدي الى افلاس بعض التجار على اختلاف مشاربهم

وامكاناتهم ومراكزهم ونوع اختصاصاتهم، فيضطر المدينون لبيع جميع ممتلكاتهم لتسديد ما بذمتهم للدائنين من اصحاب الشركات الكبيرة أو الابناك أو لبعض المرابين الذين كانوا يمارسون تجارة التسليف بفوائد جد مرتفعة ومقابل رهونات ثمينة قيمة من رسوم لعقارات أو مجوهرات من النفائس النادرة، حتى اذا ما عجز المدين عن تسديد دينه للدائن بيعت رهوناته بأبخس الاثمان في سوق البالي بالدلالة أي بواسطة الدلال. ويقال في هذه الحالة عن المفلس : «فلان تركوه» أي بيعت املاكه واشياؤه وكأنها تركة. وطبعا لم تكن هذه الاشياء أو الاملاك تباع باثمانها الحقيقية وانما كانت تدخل في خانة «الحاجة التي مات مولاها» أي الحاجة التي فقدت السند المعنوي ولم يعد هناك من يدافع عنها، فيكون مصيرها بيع البخس، لان صاحبها وان كان ما يزال على قيد الحياة فَقَدَ الحق في الدفاع عن الثمن مهما تدنى وفقد حق رفض البيع. ومتى بيعت املاكه كلها ولم تف بديونه اعلن افلاسه. وطريقة اعلان الافلاس تتم بشهادة عدلية، وتسمى تلك الشهادة : «كاغيط العدم» ووثيقة الافلاس. ولم يكن المفلس ينجو من تعاليق ألسنة الناس وتأخذ هذه التعاليق صيغ التشفي، وصيغ المواساة. وهذه نماذج من أقوال وتعليق الناس التي لاترحم .وحتى تلك التي تبدو في ظاهرها الرحمة فباطنها نقمة : «فلان، ربنا كريم» «فلان طلّع الفنار» «فلان ربي سبحانه عبا جلبانه» «فلان كان راس صبح رجلين» «فلان لا يجد ما ينفق» «فلان سبحان من يبيتها في

شان ويصبحها في شان » « فلان مسكين » « يد اللورا واخرى القدام » أي لم يعد يجد حتى ما يستر به عورته. وترتفع اصوات اخرى يختلط فيها التفشي بالمواساة، « فلان ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء » « فلان ارحموا عزيز قوم ذل » « فلان اللي ما خرج من الدنيا ما خرج من عقايبها » « فلان الله يلعن اللي يثيق بالدنيا » « فلان سبحان مبدل الاحوال » « فلان البارح البارح، اليوم اليوم » « الحاج فلان كان ابوهما صالحا » « التاجر فلان اصبح تاجر مالطة لا فرش لا غطا » « نعم هكذا اصبح المسكين لادي دي لا الفا نيدي » أو برواية أخرى « فلان لا دي دي لاحب الملوك » وهذه الاقوال كلها يمكن ان تقال للتعزية والمواساة والمجاملات وجبر الخواطر، كما يمكن ان تقال للتشفي والتشنيع والتشهير والرجوع بالمنكوبين الى عصيانهم وطغيانهم وجبروتهم وتفسير ما حل بهم الى انه انتقام الله الذي يمهل ولا يهمل.

وعلى الرغم مما كان يقال أو ما كانت تلوكه الالسن في حالة النكبات الا أن نزوعات الخير التي تنتصر دائما في النهاية كانت تحفز الاخيار على القيام بما يفرضه الواجب من تضامن مع الجيران والوقوف الى جانبهم في السراء والضراء. وهنا يتحتم علي ان اعود للعنوان الرئيسي لهذه الورقة : « طاميم » فكلمة : طم تعني لمّ، جمع. و« طاميم » باللغة العامية المغربية تعني الاكتتاب. واذن كان النبهاء من الكرام النبلاء من اصحاب المكانة المرموقة، والكلمة المسموعة، والرأي الذي لا يجادل في وجاهته وسداده احد، كان

هؤلاء الناس يقومون بجمع المال لفائدة المنكوب المفلس وذلك إما عن طريق فرض أرقام معينة وبشكل مؤدب ولكنه شبه اجباري واما عن طريق ترك الباب المفتوح لتتحرك الايادي البيض على قدر الهمم وعلى قدر الامكانيات وحسب كرم الناس أو شحهم، وحسب قدرتهم على التطوع في البذل والعطاء. واناس الشهامة والاريحية من المتطوعين الذين كانوا دائما على أهبة للتحرك في اتجاه الخير والنجدة لم يكونوا قلة. وعملية «طاميم» في واقعها اكتتاب عرف في مدينة فاس بهذا الاسم «طاميم» وهي عملية كان يجري العمل بها في معالجة كثير من الحالات التي يتوجب في معالجتها الاسهام والتآزر والتعاضد والمساندة بكل ماهو متاح وممكن وكيفما كانت الحالة التي دعت الى اللجوء الى عملية «طاميم».

«الكشكول»

واذا كانت عملية «طاميم» تكتسي في الغالب رداء من السرية التامة حتى لا يعلم المعني بامرها، والمقامة لحسابه من هم المتطوعون، ومن هم المحسنون، ومن هم الفضلاء الكرماء النبلاء الذين ساهموا في نجدته ومساعدته، فعملية مد «الكشكول» وهي مشابهة في الجوهر والعمق لعملية «طاميم» كانت تتسم بطريقة علنية مكشوفة، وبلا أي تحفظ أو حرج. والكشكول هو عبارة عن وعاء أو كفة كبيرة توضع فوق كفة الميزان أو عوضا عنها وبمعيار دقيق لكبر حجمها

وسعتها وقدرتها، فهي أكبر مما تستوعب الكفة العادية. والكشكول وعاء يتسع لكل الاشياء مهما اختلفت أحجامها. وهكذا كان المتطوعون من ثقاة الناس واشرافهم يمسكون بالكشكول ويتجولون في الاسواق قائلين بعبارات واضحة واحيانا باصوات مرتفعة: «شي بركة» اي ما تيسر، لمساعدة صديقنا أو جارنا فلان، ان ظروفه المادية جد حرجة وانه يعاني من ازمة خانقة، أو غير ذلك من الكلام الذي كان يحرك نزوعات الخير وهمم المحسنين لمدٍّ يدِ العون. وكانت الهبات في عملية «مد الكشكول» تعطى بطريقة علنية مكشوفة. وقد تكون متعمدة قصد اثارة الحماس أو تحريك من لا يتحرك في هذا المجال بسهولة. وثقاة المتطوعين كانوا لا يفصحون عن اسم أو ظروف من يطاف من أجله بالكشكول. الا أن الكشكول كان يمتلئ على سعته بالعطايا والهدايا المختلفة من نقود واوراق مالية ودماليج وخواتم بسرعة وبشكل يثير الدهشة. نعم كان الناس يتسابقون لمساعدة المنكوبين ممن تحل بهم المصائب والكوارث، وتحولهم الخسارات الفادحة المفاجئة من اغنياء الى فقراء بين يوم وليلة. واذا سمعت ان فلانا مد الكشكول، فمعنى ذلك انه اعلن افلاسه. ولم يتحرج في مد الكشكول. وهو لا يجد أي غضاضة أو منقصة في أن يُمَدَّ الكشكول باسمه ولفائدته جهاراً لأنه اصبح مضطرا ومحتاجا. وفي هذه الحالة كانت ألسنة الناس السيئة لا ترحم. والمعلقون والمعقبون والمحللون يطلقون لألسنتهم العنان. فاذا قال قائل منهم: ان فلان الفلاني - مسكين - مد الكشكول فالمعنى الظاهر انه نكب، وان خسارة حلت به

فاضطر لمد الكشكول والمعنى المبطن هو الشماتة والتشفي، حتى ان من اصحاب هذه الألسنة من كان يقول ان فلان الفلاني ذلك المتكبر المتعجرف المنفوخ والمغرور بماله، ذلك المتهافت الملهوف على المال، وحب المال، وجمع المال، ذلك الفلان الذي اتسم سلوكه بالقساوة والظلم، وغبن الناس، واستغلال الضعفاء والمغفلين منهم، انه الآن يأخذ نصيبه من عقاب الله. وما مد الكشكول إلا نوع من عقاب الله. وبهذا يعرف الله. نعم فلان الفلاني الذي كان بالامس القريب فرعون الطاغية المتجبر المتكبر والذي كان يمشي في الارض مرحا والذي لا يقول ابدا : السلام عليكم اذا مر، ولا يردها اذا قيلت له، نعم فلان الذي كانت «خنافره» مرفوعة الى عنان السماء اصبح متسولا شحاذا، ماسكا بالكشكول. ومن يعيش يرى والدهر حبلى والايام امهات العجائب والغرائب. نعم فلان الفلاني الذي لم يكن يعتبر الناس إلا على قدر ما يملكون اصبح لا يملك شروى نقير.

وهذا النوع من الشماتة والنكاية والتشفي كان قائما مواكبا وموازيا للنوايا الطيبة، والفعال الخيرة النبيلة. أما الاغراض التي كان يمد الكشكول من اجلها فهي كثيرة ومتنوعة ومتعددة وتشمل جميع الحالات الطارئة أو القائمة والتي تحتاج الى العون ومديد المساعدة حتى تعود الطمأنينة لمن فقدوها والمكانة والاعتبار لمن ضاعت منهم على غير توقع أو احتمال.

«دوّر بوخرصة»

واذا كان هناك أناس على أهبة دائمة للتطوع لحمل الكشكول والتجول به من أجل الاخرين ومساعدة الاخرين، فانهم لم يكونوا يتطوعون بحمل الكشكول الا اذا تأكد لديهم ان المفلس مفلس حقا وان المضطر في حالة اضطرار قصوى، الشيء الذي كان يجعل بعض المشكوك في افلاسهم، وحتى المتحايلين باسم الافلاس يحملون الكشكول بانفسهم ويقومون بطلب المساعدة مباشرة من الناس الرفاق الاصدقاء والمعارف والاقارب والعملاء في التجارة والزملاء في المهنة وكل من له بهم اتصال على اي مستوى أو حتى الذين لا يعرفهم اطلاقا. الا أن المسعى الفردي لم يكن يحقق تلك النجاحات المذهلة الباهرة التي كانت تحققها المساعي المتكتلة الجماعية. ثم إن الكشكول اصبح كناية عن الحاجة، والفاقة، والاضطرار، ومد اليد قهرا. فانت اذا قلت : فلان مد الكشكول، فالمعنى هو ان هذا الفلان قد افلس ونكب وحالته المادية تبيح له مد يد الشحاذة المحترمة، ولكن ليس بالضرورة ان يمد اليد كل مفلس منكوب، بل هناك من يتحدى النكبات والافلاس ويرفض باصرار ان يحمل الكشكول أو يُحْمَلُ من أجله ويأبى إلا أن يعتمد على نفسه في معاودة الوقوف من كبوته والتصدي لنكبته، اعتمادا على نفسه فقط، بالعمل والجد والمثابرة. والصور كثيرة متعددة لاناس نكبوا وضاعت اموالهم وعقاراتهم، وكل ممتلكاتهم ثم بدأوا العمل من جديد بهمم عالية، وشمم يقهر الخذلان، وكبرياء صامد مصر الى ان

استقامت احوالهم واستطاعوا أن يسترجعوا مكانتهم واعتبارهم وكل ما كان قد ضاع منهم، بل هناك من هؤلاء الناس من كان يعتبر السقطة هي السبب وهي الحافز على معاودة النهوض وهي التي تذكي رغبة التحدي والصمود والمواجهة في الرجال من ذوي الحزم والعزم والهمم العالية والإصرار الذي لا يعرف المستحيل.إلا أن وجود الرافضين لحمل الكشكول من قبلهم أو من قبل غيرهم. كان في الواقع يمثل بعض الاستثناءات فالمتحايلون كثر ولا يخلو منهم زمن أو مكان. ومع ذلك كان هناك من يرفض بايباء واصرار عمليتي: «طاميم» بسريتها وطقوسها و«الكشكول» بعلانيته، والضجيج الذي يقوم من حوله برغم المقاصد النبيلة، والنيات الحسنة، الى جانب هؤلاء الرافضين كان هناك من يُحَبِّذُ العمليتين معا : «طاميم» و«الكشكول» بل ويوعز بطريقة أو بأخرى الى المحسنين المتطوعين كي يهبوا لنجدته ومساعدته والناس طباع، وعقليات، وسلوكات، واخلاق ونماذج. وكما يقول شاعر الملحون العامي المغربي : «سبحان الله في طبايع الناس، والناس احوال كل واحد في حَالَتْ حاله» وهنا يجب ان نعود الى عنوان هذه الورقة «بوخرصة» فالقاموس يقول : خرص خرصا، كذب وتخرص. واحترص عليه افترى وكذب. والخراص هو الكذاب. والخرص : جمع خرصان، وخرصان حلقة من الذهب أو الفضة أو غير ذلك. إذن لنأخذ ما يهمنا من خرص، بمعنى كذب وافترى، وادعى الحاجة، والفاقة وهو غير محتاج ولا فقير، وتظاهر بأنه منكوب ليستدر عطف الناس، ويدغدغ عواطفهم.

فـاذا كـان هذا الـنوع من الاكـتـتـاب يـعـتـبـر مـن الحـقـوق الـواجـبـة مـعـنـويـا عـلى كل أهل الـشـهـامـة والخـيـر لـلقـيـام بـهـا بـاعـتـبـارهـا الـعـضـد والـسـنـد المعنـوي في مـجـتـمـع مـتـكـافـل ، مـتـضـامـن مـتـمـاسـك مـتـحـضـر، يـقـومـون بـهـا تطوعـا لـفـائـدة المنكـوبـين، واذا كـان هـنـاك مـن يـرفـض ان يـكـتـتـب لـصـالحـه، فـقـد كـانـت هـنـاك نماذج اخرى مـن الانـتـهـازيـين المخـتـالين، واصـحـاب المصلحـة الانـانـيـين، والنمـاذج كـثـيـرة مـتـنـوعـة ولكـن الـنـمـوذج الذي يـهـمـنـا هـنـا. هـو ذاك الـذي يـقـوم بـعـمـلـيـة «دور بـوخـرصـة» وتـتـلـخـص فـي أن واحـدا مـن هذه الأرهـاط يـرتـدي افـخـر الحلل، وابـهى الملابـس ويـتـنـظـف ويـتـأنـق ويـتـعطر، ويـبـدأ فـي الـتـجـول عـبـر أزقـة وشـوارع مـديـنـة فـاس ـ وقـد تـكـون هـذه «الـظـاهـرة» عـامـة وتـشـمـل كل أو جل المدن المـغـربـيـة ـ يـبـدأ الـتـجـول وهـو يـراقـب الـنـاس. وكـلمـا صـادف مـارا تـوسـم فـيـه الـغـنـى فـي الـشـارع أو فـي المسجد عقب الصلاة إلا وتـقـدم مـنـه.

- سـيـدي الكـريم الـنـبـيـل، اسـمـح لـي ان اقـدم لـك نـفـسـي، انـا ـ والـعـيـاذ بـالـلـه مـن قـولـة انـا ـ فـلان، اقـصـد الحـاج فـلان، واظـن انـك تـعـرفـنـي، وحـتـى اذا كـنـت لا تـعـرفـنـي، فـلابـد انـك قـد سـمـعـت بـي؟ الـيـس كذلك؟
- وهـو كـذلـك فـعـلا، فـقـد سـمـعـت بـك وأعـرفـك
- الحمد لله، اسـمـع يـاسـيـدي: انـا بـلا لـف ولا دوران مـنـكـوب
- مـنـكـوب
- نـعـم مـنـكـوب. وأكـثـر مـن مـنـكـوب، لـقـد اكـرهـنـي الـزمـن الـقـاسـي ـ لاأراك الـلـه مـكـروهـا ـ عـلـى مـد الـيـد، وحـمـل

الكشكول، وارجو ان لا تغرك مظاهري وتدهشك ابهتي فانا وفي وضعيتي وظروفي الحالية ممن ينطبق عليهم المثل المغربي : «يا المزوق من برا آش اخبارك من الداخل» نعم ياسيدي انا الحاج فلان الذي كان يعطي، فاصبح يستعطي. وبهذه الوقاحة التي اخاطبك بها الآن. ولكن ما حيلتي وانا العبد المضطر. وهذا هو حال هذه الدنيا.

- لاحول ولاقوة الا بالله العلي العظيم، ماذا اسمع ؟ وماذا أرى؟

- ترى الحقيقة وتسمع الواقع. سيدي الكريم، النبيل، الاصيل، لقد توسمت فيك الخير كل الخير. وانت - أكيد - من اهل الخير، هذا ماقالت فراستي وفراسة المؤمن لا تخطئ. ويمضي في الشقشقة واكل الدماغ على هذه الوتيرة مستخدما كلمات مؤثرة مدروسة الى ان يسقط الضحية في الفخ ثم يجهز عليه في عملية ابتزاز دنيئة فيأخذ منه ما اراد هو، لا ماتكرم عليه به الكريم، فاذا اعطاه مثلا قدرا من المال صغيرا رده اليه بوقاحة قائلا : «هذا الشي. ماشي قد وجهك» أي هذه العطية الزهيدة الشحيحة ليست في مستوى مكانتك المرموقة، وكرمك المعهود، وسخاء يدك الممدودة دائما بالخير والعطايا الجزيلة. ويستمر معه في هذه المساومات، الى ان يحصل منه على ما أراد.

هذا النوع من اللصوصية المقنعة المريبة والشحاذة «المحترمة» والمبررة بمصائب وكوارث، وازمات ونكبات لا

وجود لها، والسرقة باسم التسول الاضطراري التحايلي، ياخذ طابع الاستغفال، والضحك على الاذقان قصد الابتزاز الشبه المقنن، والمتحضر. وسيف الحياء كسيف الغصب.

ومن الناس من اتخذ من هذه « الشحاذة المحترمة » مهنة يزاولها بلا حياء ولا حرج، وأصبح منعوتا عند عامة الناس بـ « السلسلة على الأعناق ». و لا ينعت بهذه الصفة إلا من كان يعيش على كد الآخرين، ويعتمد على التحايل والادعاء بأنه محتاج ومضطر ومكره على طلب العون من الناس، لان كل السبل قد سدت في وجهه وانه لم يعد يملك الا كشكول الشحاذة . وهذا النموذج من الناس هو ما اصطلح على تسميته بـ :« بوخرصة ». فانت اذا سألت عنه مثلا وقلت بماذا يشتغل فلان؟ قيل لك : انه « يْدَوَّر بوخرصة » والذي يدور بوخرصة طبعا خراص. والخراص كما يقول القاموس هو الكذاب. وهناك من كان يصف من يمتهن هذا النوع من سرقة الناس المكشوفة بـ « الناعورة » فيقال فلان ناعورة. او فلان نواعري. او فلان« بوحاطي » دجال مشعوذ حرفته : « دوّر بوخرصة » وكل من يدور بوخرصة ما هو الا محتال مخاتل خداع، يستغل نبل الناس وكرمهم و طيبوبتهم ليعيش سلسلة على أعناقهم. ولكن النبهاء من الناس – وهم كثر – كانوا يميزون بين المحتاج المحتاج، والمحتاج غير المحتاج. وبفضل هذا التمييز بين المضطر الحقيقي. وبين مدعي الاضطرار كان الاول يتلقى المساعدات وتمتد لنجدته كل الايادي الخيرة المعطاء. بينما يُرفَضُ الثاني ويعامل بحذر وتؤخذ منه

الحيطة. ويشار اليه بأصابع التنبيه. واكثر من كل هذا تلاحقه النعوت وتطارده الالقاب الساخرة المزرية المستهزئة كلقب : «اللهاب» ويعني الكذاب الشقشاق الذي لا يقول الحق الا سهوا او خطأ و «الشحراط» ويعني الثرثار المتحايل والمتلاعب بالكلمات والذي يوريك الربح ليسلبك رأس المال. اما «الكية»، «النقشة»، و «النمرة»، و«الرهط» فتعني كل صاحب كلام فضفاض أجوف فارغ من كل محتوى، لا يصدق ولا يعتمد عليه.

ومهما تعددت النعوت واختلفت الالقاب فاصحاب «بوخرصة» لم يكونوا قلة. كما لم تكن دوافعهم للتسول واحدة موحدة. فمنهم من كانت تمثل عنده ظاهرة الشحاذة بطريقة واسلوب «بوخرصة» أعراضا مرضية مزمنة حتى ان منهم من كان يعلق عليها بقوله : «السعايا بلية» و«الشحاذة ولاعة» ولاسبيل للتخلص منها. ومنهم من كانت عنده مزاجية، هواية يجد في ممارستها متعة كبيرة. ومنهم من كان التسول عنده بقصد التكاثر. إذ أن هناك من هؤلاء المتسولين «المحترمين» من كان يملك العقارات، ويتوفر على أموال طائلة ومع ذلك كان متسولا بطبعه، وإنه جبل على الشحاذة ومد اليد - او لم يقولوا أيضا: «الشحاذة دودة واللي ذاقها ما يسلى عليها» أي الشحاذة بلية ومن تعوَّد عليها لا يتخلى عنها.

ولكن ومع وجود هؤلاء «المحتاجين المزيفين المحتالين» والذين يحاولون بقصد أو بغير قصد افساد حسنات

المحسنين وتمييع هذه الحركة التطوعية، والتشكيك في الغاية من «عملية طاميم» والمرمى والهدف من عملية «الكشكول»وهما اكتتاب الخير مع وجود هؤلاء يبقى الخير والنوايا الطيبة، والمساعي الحميدة المخلصة وارادة الوقوف الى جانب المنكوب الحقيقي. يبقى كل ذلك حاجزا بين الحق والباطل. وكما قال طه حسين: «الناس معادن. ومن المعادن ما يعلو على كل الصدأ، ومن المعادن ما يعلو عليها الصدأ.»

«الحبورة»

كلمة متداولة في جميع الاسواق التجارية وفي جل ان لم اقل كل المدن المغربية : و «الحبورة» تعني السلع والبضائع البائرة.

وقد بحثت في القاموس عن معاني كلمة حبر أو الحبورة أو الحبر مما يفيد كلامنا هذا بخصوص الحبورة بالمعنى العامي في اسواق التجارة فلم اجد اي تفسير يناسب معنى البوار. والحبورة في اسواقنا التجارية كما اسلفت وكما يطيب لي ان ألح في القول هي : بقايا السلع التي لم يستوعبها المشتري، او لم تصب حظا من النفاد او لم يقبل عليها الناس. او تلك التي تجاوزتها البدع «الموضات» او فاضت عن الحاجة فكان فيها العرض أكبر من الطلب او لاي سبب آخر بارت و تكدست وكسد رواجها. فأصبحت «حبورة».

إذن الحبورة اصطلاح عامي مغربي عرفي عن بقايا السلع والبضائع البائرة. ومن الناس من كان يسمي العانس البائرة حبورة، والعوانس حبورات. نعم الفتاة التي تخطاها الطلب والزمن وتجاوزها الركب وفات أوان زواجها تسمى : بائرة أي «حبورة».

وعندما كانت تبور السلع وتتكدس وتتراكم البضائع في الدكاكين و«دور السلع» كما كانت تسمى المتاجر الكبرى للبيع بالجملة، كان التجار يعمدون الى بيعها باثمان زهيدة منخفضة لدرجة البخس التي تدخلها في خانة «الخردة» أو «الصولد الحقيقي».

وفي هذه الحالة وفي مثل هذه الظروف كانت تنشط الهمم. ويبدأ التعاون لتخفيف وطأة الخسارة على المنكوب بالحبورة. فتتوزع البضائع والسلع على كل الدكاكين في السوق، إما بالشراء وتسديد ثمنها لمعاودة بيعها على المدى الطويل، وإما لمجرد عرضها على الزبناء لحساب صاحبها- وهذا أضعف الإيمان-. كثيرة هي البضائع والسلع التي كانت تبور و«تتحبر» لتظل متراكمة عند اصحابها. واذا كان من التجار من كان على سعة بحيث يستطيع أن يدّخرها الى أن يأتيها زمنها كما يقولون فهناك من كان يضطر لبيعها «باشما جاب الله» أي بأي ثمن ممكن. المهم عنده هو التخلص من «الحبورة» بأي ثمن مهما كان زهيدا وبخساً. ويرفع شعار : «كركب تكسب» بع بأي ثمن ولاتدع الدراهم مجمدة لاتتحرك.

وفي حالة تراكم السلع عند أحدهم كان التجار يقفون الى جانب الواقع تحت طائلة التراكم بالقول والفعل. يشترون من عنده ويبيعون لصالحه، ويعمدون لمواساته بالنصح والتوجيه وحثه على التسلح بالصبر والاناة. ويرددون على مسمعه بعض الحكم، والاقوال المأثورة، والامثال الشعبية المناسبة للمقام، كقولهم : «ماعليك الا بالصبر. والصبر، مفتاح الفرج» و«من تأنى نال ما تمنى» و«السلعة اذا كسدت اليوم نفدت غدا» ولا تكن مستعجلا قلقا «الفار المقلاق من سعد القط» وضروب المواساة في هذا المجال لاحد لها ولا حصر. ومن اطرف ماكانوا يواسون به صاحب «الحبورات» حكاية البلغة التي مكثت في دكان صاحبها ثلاث أو خمس سنوات لان الرواية في تحديد الفترة الزمنية مختلفة حسبما سمعت من رواة هذه الحكاية. المهم ان الحذاء - البلغة - بارت وتغاضى عنها المشترون مع أن صاحب الدكان كان يتفنن في عرضها على الزبناء، بحيث لم يترك أي وسيلة للترغيب فيها، ولكن بدون جدوى. لأن البلغة لم تكن تروق أو تستهوي أي أحد. ولما مل من عرضها على الناس بلا طائل اركنها وتغاضى عنها هو نفسه، وكأنها شئ لا وجود له في دكانه حتى اصبحت نسيا منسيا. وذات صباح أقبل زبون فطلب من صاحب الدكان بلغة، فعرض امامه سلسلة كبيرة من «البلغات» المتنوعة والزبون يرفض الواحدة بعد الأخرى. وفي النهاية اعتذر صاحب الدكان للزبون بأنه لا يملك «البلغة» المناسبة. فأخذ الزبون يتجول ببصره في اركان الدكان الى أن استقرت عيناه على تلك البلغة المركونة في ذلك الركن الركين.

- اعطني تلك «البلغة» أرجوك: تأمله البائع مليا وقال :
- لا اعتقد انها تصلح لك يا سيدي
- سيدي
- نعم
- ماذا يكلفك أن أرى تلك البلغة اسوة بالاخريات؟
- لاشيء
- ارينيها ارجوك
- حاضر! ثم اعطاه البلغة اياها. وما أن وضع رجليه فيها حتى اشرقت اساريره، وافصحت ملامحه عن ابتسامة عريضة، وقال بكامل الرضى هذه بلغتي. ولم يساوم أو يناقش الثمن .بل دفع ماطلب منه بغبطة وسرور. واخذ البلغة وهم بالانصراف وهو في غاية السعادة، ولكن التاجر استوقفه قائلا:
- سيدي الكريم
- نعم سيدي الاكرم
- هل لي أن أسألك؟
- تفضل
- هل لي أن أسألك من أي مدينة أنت
- أنامن مدينة فاس بالذات
- لابد انك كنت متغيبا عن المدينة
- وهو كذلك. الواقع انني كنت في المدينة. ولم اكن فيها
- كيف ذلك
- اذا وعدتني أن تتولاني بالستر قلت لك
- وعد الرجل الحر دين عليه، ومن افشى سرك يعمى،

صدقني. وهنا همس الزبون في اذن البائع
- كنت في السجن
- من متى؟
- منذ خمس سنوات، استرني

والخلاصة بلغة التجار هي : ان لكل سلعة صاحب بمعنى زبون أو مشتري. ولكل قمح كيال، أي متسوق. وكما يقولون: «حبة مسوسة ينقبها ديك أعور» ويقولون ايضا : الحانوت قادرة على بيع كل شئ. وحتى صاحبها نفسه، وليس على من ابتلي بالحبورة الا أن يعتصم بالصبر الجميل.

واذا اشتكى احدهم من سلعة بائرة - حبورة - قيل له في معرض المواساة : لاتقلق فصاحبها في السجن «الله يطلق سراحه». وصار القول جار على الالسنة كمثل يضرب لعدم التضجر من السلعة البائرة : «هذي مولاها ف الحبس» أي صاحب هذه البضاعة مسجون.

دار الجار. تبقى للجار

ومما يحكى عن الجيران - ويدعو للعجب والاستغراب ولا أقول الدهشة وعدم التصديق - مما يحكى ان احد الناس اضطر لرهن بيته مقابل سلف اخذه من أحد المرابين بشرط التنازل والتخلي عن البيت في حالة عدم القدرة على تسديد دينه في الاجل المضروب والوقت المحدد بشهادة عدلين. وتجر الرياح بما لا تشتهي السفن، ويحين وقت السداد ويعجز

المديون عن اداء ما بذمته للدائن، فيجد نفسه وجها لوجه أمام بنود الاتفاق المبرم بينه وبين الدائن، إذن لا مناص من تسليم البيت المرهون.

وحتى لا يشيع خبر هذا الاضطرار بين جيرانه وتجنبا للبلبلة والاقاويل والفضيحة يقوم المديون العاجز عن السداد بعملية افراغ البيت ليلا، ونقل رحيله الى مكان آخر، في هدوء وتكتم وسرية مطلقة كما ينتقل الدائن الذي آل اليه البيت ليلا هو الآخر، ويأتي برحيله واشيائه بغير ضجيج ولا عجيج. حتى اذا ما جاء الصباح ألفى الناس كل شيء عاديا كما كان بالامس ولم يتغير الا وجه واحد هو وجه الجار الجديد الذي عوض وجه الجار القديم وقد لا يثير هذا التغيير أي اهتمام أو حتى يلفت النظر في وقتنا الحاضر، ولكن الناس وقد كانوا يتعايشون في ظل عادات واعراف وتقاليد سرعان ما يتنبهون الى أن ساكن اليوم الجديد ليس هو جار الامس القديم، اذن ماذا جرى؟ يتساءلون ويسألون، وتبدأ عملية النبش الى أن يقفوا على الحقيقة. ومتى اتضح امامهم الامر، وتعرفوا على سر الظروف التي بدلت جارا بجار هبوا جميعا للنجدة بكل الوسائل وتضافرت جهودهم لتجميع الاسهامات والعطايا وسددوا الدين لصاحبه وارجعوا جارهم لداره.

وكما تمت عملية نقل الرحيل ليلا وبسرية تامة تتم عملية ارجاع الامور الى نصابها بنفس الاسلوب وعين الطريقة، وهكذا لايطول غياب الجار عن حومته وجيرانه أكثر من بضعة ايام وكأنه كان مسافرا لغرض ما، أو في نزهة

خارج المدينة. حتى أن هناك من سكان الحي من كان يسهم ولا يعرف لصالح من. المهم عند أهل الحومة أن تبقى دار الجار في ملكه. وان لا تمر بجار أزمة وجيرانه نيام غافلون أو متغاضون. ويقال والعهد على الرواة ان هذه الحكاية وقعت بمدينة فاس وبحي العدوة بالذات. الى هذا الحد كانت أواصر المحبة تربط بين الجيران. الى هذا الحد كان التكافل والتعاون والتعاضد قائما يوطد العلائق ويقوي حسن التساكن، والتعايش والى هذا الحد كان التفكير الاحادي يتحول الى التفكير الجماعي فتذوب الفرديات والانانيات. مشكلة جاري مشكلتي، وما يعنيه يعنيني، أو ليس في هذه الحكاية ما يدعو لاكثر من العجب، وأكثر من الاستغراب واكثر من الدهشة ؟!

« الحدود »

جمعتني صدفة جميلة في أمسية رائعة بمرتيل بالسيد الحاج محمد حسيسن وهو من الوجوه التطوانية المشرقة الممتازة، دار فيها الحديث عن اشياء كثيرة ومتنوعة ولا ادري كيف تطور النقاش والسجال حتى وجدت نفسي متدفقا في الكلام عن بعض التقاليد والاعراف والعادات، وخصوصا منها تلك التي كانت تقنن أصول الجيرة بين الجيران. وتحكم القواعد التي كان يقوم عليها التعايش والتساكن وحسن الجوار. وبينما أنا كذلك مندفع في هذا الحديث الذي أجد فيه لذة ومتعة، واذا بالسيد الحاج محمد حسيسن يقص علي

بلهجته التطوانية المحببة هذه الحكاية : كان سكان مدينة تطوان - والميسورون منهم بصفة خاصة - يملكون بعض الحدائق والجنان في ضواحي المدينة. وكانت تجمع بعضهم جيرة الحدائق ويسمونها : « الغرسات والعرصات والجنانات ». وكان يحدث أن تطرأ بعض الخلافات البسيطة حول الحدود ورسم الحدود، فيتفق الجار مع جاره على أن يتصلا في اليوم الموالي في المسجد الفلاني لاداء صلاة الفجر. ثم يتوجهان الى الضاحية حيث الحدائق المجاورة والحدود غير المرسومة.

ولدى الوصول الى عين المكان تبدأ بينهما مفاوضات صعبة شاقة على هذا النحو :

- ها نحن قد وصلنا. فاين ترى الحدود التي تعتقد انها تدخل في حيز ملكك ياسيدي؟
- لا أدري والصراحة انني لا أستطيع اطلاقا ان احدد في هذه الارض ما يخصني مما يخصك؟
- وكيف العمل اذن؟ يجب على كل حال ان نرسم الحدود؟
- الحل والعمل بيدك انت يا سيدي فما عليك الا أن تتصرف، وانا أوافق
- توافق؟
- على كل ما ترى أو تقترح
- لا، لا، ابدا لن يكون هذا، ولن أكون أنا هو المقترح فالحدود هي ما تحدد انت وانا أوافق بلا نقاش.
- ولكن هذا « تقليد » يا جاري العزيز لا أستطيع أن أضعه على كاهلي الضعيف؟ لا، لا، يا جاري، انا أخاف الله

- وانا ايضا يا سيدي اخاف الله ولا أريد أن أمتلك مالا يخصني حتى بطريقة الخطأ، إنه تقليد فوق احتمالي.
- ولكنني احررك وحتى لو اخطأت فأنا اسامحك، وما عليك إلا أن تخطط الحدود كما تراها وأنا أؤمن عليها. ارسم الحدود كما يحلو لك ان تراها مناسبة ومنصفة.
- ولماذا لا تخططها انت وكما يطيب لك وكما تشتهي أن تراها، وانا موافق، وليس لي على ما ترى أي اعتراض.
- واذا كانت موافقتك من قبيل الحياء؟ وسيف الحياء كسيف الغضب
- وموافقتك انت الا يمكن أن تكون من قبيل موافقة الانسان المسالم الحيي الذي يتنازل عن حقه بدافع من حياء؟ وهنا ايضا سيف الحياء كسيف الغضب.
- انك تعقد الامور وهي في منتهى البساطة. ويجب بل يتحتم ان ننظم حدودا ترسم خريطة تؤطر معالم الحديقتين، فتعرف من اين تبدأ حديقتي والى اين تنتهي حديقتك.
- من اجل ذلك جئنا اليوم أليس كذلك؟
- وهو كذلك، اذن فلنشرع باسم الله
- هيا تفضل، ماذا تنتظر؟
- انتظر ان تدلني على الحد الذي ترى.
- الحد الذي تراه انت، هو الحد الذي ارى، وهو حتما الحد الصحيح
- والله انا لا أعرف بالضبط الحد الذي تنتهي عنده حديقتي ولا أعرف كذلك حد بدايتها

ـ وانا كذلك

ـ وما العمل ؟

ـ هذا هو السؤال المحير، ما العمل ؟ وكيف نتصرف ويكون تصرفنا صحيحا وسليما ؟

ويستمر الحوار على هذه الوتيرة في أخذ ورد الى ما لا نهاية، الى أن يمضي النهار دون الوصول الى أي اتفاق يرسم الحدود، ويبث في شأنها وسبب الخلاف بالنسبة لحاضرنا الراهن غريب وعجيب. ذلك ان كلاً من الجارين لا يريد أن يأخذ مترا أو شبرا من أرض جاره، بل يريد أن يكون هو المتنازل وهو المسامح وهو الكريم، وقد يطول الخلاف الى أن يأتي واسطة خير يوكلانه برسم الحدود. ويقبلان ببثه في أمر تحديدها دون جدل أو مناقشة. والذي يقف على جوهر هذه الخلافات التي كانت تقوم بين الجيران حول رسم الحدود، والتي كان مصدرها الخوف من الحيف والظلم والغش والتطاول والترامي غير المقصود، الذي يقف على جوهر هذه الخلافات يقف مذهولا امام ما يقع في زمننا هذا من خروقات وترامي على اراضي مرسومة محددة ومعلمة باحجار المحافظة، هذه الاحجار التي يحولها جيران معاصرون ممن توحي كل مظاهرهم بالنبل والوعي والتحضر والتقدم، يحولون الاحجار طبعا في بعض الامتار أو بعض الاشبار من أرض جيرانهم وفي واضحة النهار بدون حشمة ولا حياء بل بصفاقة و« جبهة » يعز لها النظير. نعم يسرق أرض جاره بلا خوف ولا خجل وبضمير نائم كسول لا يوبخ ولا يؤنب ولا

يقض مضجعا فاين جار اليوم من جار الامس والامس القريب فقط ؟ ياعجبا! ولدى الانتهاء من سرد هذه الحكاية قرأ في ملامح وجهي علامات استفهام طويلة عريضة، تطغى فيها الدهشة ويتضح عدم التصديق فتأملني مليا وقال : انت محق في أن تتعجب ومحق في عدم التصديق بهذه الحكاية ولكن صدقني - يقول الحاج محمد حسيسن - هذه الصورة التي رويت لك واقعية ولها اشباه وامثال كثيرة ، وهي الاساس الذي كانت تبنى عليه جدران «الجورة» وتقوم عليه الروابط بين الجيران. نعم كانت للجيرة طقوس وعادات وتقاليد ولك الحق في أن ترى ما أقص عليك من قبيل الخرافة أو الاسطورة أو المبالغة التي تصور المبيت في السجن جنة على حد تعبير المغاربة. فما نرى هذه الايام من نفور وكبر وعجرفة وتباعد بين الجيران مهما تقاربت مساكنهم وتجاورت شققهم وفيلاتهم يبعث الاسى والاسف. ان جار اليوم لا يكاد يعرف جاره الا في النادر، و لا يحس بوجوده ولا يهمه من شأنه أو ظروفه أي شيء باطلاق. وقد يجاوره مدة من الزمن غير قصيرة، ولا يعرفه - مجرد معرفة - وقد يتغير جار السكن المقابل او المحادي عشر مرات في السنة الواحدة، وتتغير وجوه الجيران من غير ان يثير ذلك اهتمامه أو يلفت نظره.

والحقيقة انه لا يشعر بالاسف والاسى، واحيانا بالالم البالغ الممض على ضياع تلك الروابط، وذلك التماسك المبني على التضحية والعطاء والبذل والايثار والتفكير الجماعي

بين الجيران إلا من عايش تلك الفترات الزااهرة العظيمة، وامتد به العمر الى فترتنا هذه التي طغت فيها الانانية، والفردية، والاحادية حتى اصبحنا نرى في جل الملامح، ونقرأ في غالبية الوجوه : انا، انا، ولا انا الا انا، ومن بعدي «كمل من عقلك»

واناس فترتنا هذه لا يأسفون على ضياع شيء لا يعرفونه اطلاقا، فما كان بالامس لا يعنيهم، لانهم لا يعرفونه، ولم يعايشوه. وان انت تحدثت لهم عنه لا يصدقون، ولا يفهمون.

الخَيْزُرَانَه

السي أحمد أو الفقيه السي أحمد في بداية العقد الخامس من عمره ينحدر من أسرة فاسية عريقة ذات ارومة ريفية. استظهر الكثير من سور القرآن الكريم حيث كان من ضمن التلاميذ المتوسطين عند فقيه مشهور بـ «مسيد» كتاب سيدي العواد بزنقة الخراشفيين بفاس.

وبعد ان حفظ ما تيسر له من كتاب الله، التحق بجامع القرويين مع جملة من زملائه ورفاق الكتاب، ومن ضمنهم الخمار رفيقه وصديق عمره، ولكنه وبعد مدة قصيرة ولاسباب عائلية ملزمة اضطر الى الانقطاع عن الدراسة في القرويين، وتفرغ للتجارة بدكان والده في القسارية حيث اخذ مكان اخيه الاكبر الذي انتقل الى الدار البيضاء، واستقل بتجارته عن والده.

الا أن التجارة، ودنيا الدراهم والصفقات لم تصرفه عن المطالعة ولا عن مرافقة اصدقائه الطلبة، ولا عن مجالسة الفقهاء والعلماء والادباء فبقي مهتما بالمطالعة والادب والثقافة والعلم. كما حافظ على عادة التردد على القرويين. كلما سنحت له فرصة، وكلما استطاع ان يختلس من التجارة بعض الوقت، ليستمع لبعض الدروس التي كانت تستهويه وتهمه وكان يحرص على متابعتها وخصوصا من بعض العلماء الذين يجلهم ويقدرهم ويرى فيهم المثل والقدوة. وهكذا عرف السي احمد في الاوساط التجارية بالفقيه السي احمد.

وعلى الرغم من انه سد في متجر والده فراغا هائلا بعد هجرة اخيه وانتقاله الى البيضاء، وبرغم ما حقق من نجاح في التجارة، بقي حنينه الى القرويين قائما. فقد حافظ على صحبة الطلبة ومرافقة الادباء ومجالسة العلماء سواء من زملائه في القرويين او ممن كانوا ينتسبون لكوليج مولاي ادريس. كما حافظ الى جانب كل ذلك على المطالعة، وصداقة الكتب والجرائد والمجلات ـ على قلتها وقتذاك ـ كما قرأ كل ما استطاع، او سمح به وقته. مما كان يكتب للقراءة. وقد وجد في بيت اسرته الكثير من المخطوطات القيمة النفيسة اطلع عليها. وطلب من والده لتعميم الفائدة منها ان يهديها للقرويين. فكان له ما اراد. وبحكم هذا الشغف بالكتب والادب والعلم تهذبت لغته، وتنورت افكاره، فاصبح في القسارية المرشد والواعظ والناصح والموجه وحلال المشاكل والعقد.

والفقيه السي احمد كان إلى جانب كل ما أسلفنا مستقيما مسالما ومثاليا إلى أبعد الحدود، عفيف اللفظ جميل العبارة. وكان حسن الظن بالناس، شديد الحرص على مشاعرهم. وكان خيرا يحب الخير ويدعو إليه. أولا بتصرفاته، وثانيا بالدعوة إليه بالتي هي أحسن. وكان لا يرى في الناس إلا الوجوه الطيبة الخيرة العفيفة النظيفة الجميلة، ولا يتوقع منهم إلا ما هو طيب وخير وجميل. كان متفائلا بإسراف، مؤمنا بنقاء الجوهر في الانسان بعمق. وحتى عندما كان يصدم ببعض التصرفات من عملائه أو زبنائه في التجارة - وكثيرا ما صدم وخاب حسن ظنه في بعضهم - إلا أنه كان يردد دائما : لا يأس من رحمة الله، والإنسان بجوهره والجوهر بفضل الله نقي. وفي هذا المعنى أقول في قصيدة كتبتها في سنة 1975 :

مازال الخير فـ الدنيا واليائس ... يظلم الناس فـ جوهر الناس
مازال يصحى كل غافل وناعس ... الدنيا بخير گولوا معايا لاباس

....

اللي بغى الشر ونبش غدى يلقاه ... والي بغى الخير يصادف طريقه
واللي يعوم في بحر الشوك اداه ... والنايمين نوم هل الكاف يفيقوا
لا تسوء ظن ياالخي بخلق الله ... والله ما يدوز الصادق صديقه

....

كالوا على الگوز گرگاع فيه وفيه ... والناس گوز فيه الخاوي والعامر
البعض فـ الناس بروحك تفديه ... والبعض شوك فـ الدنيا كي المسامر

خـــويا يا بنادم شي مــــا تديه فاني مع الارض مطمور فـ المطامر

....

مازال الشمس. تشرق على لكوان مــازالة الارض بالخــيــرات تجــود

مـــــازال الهــــوا ينعش الابدان مـــــازال الما يـرمــــــز للخلود

مـازال مـا نيـأسـوش من الانسان واليـأس حيط هند وبابه مـسدود

.إلا أن والده الحاج الهادي كان يخالفه في كثير من الأراء، فـهـو حـذر بشكل مـسـرف، سيء الظن بجـمـيـع الناس، دائم الاحتيـاط واليقظة. تحكم مـعـامـلاته التـجـارية ـ ومع جميع العمـلاء والزبناء والشـركـاء ـ الارقـام، ويضـبـطها الحـسـاب والأخذ والرد والاتفاق والكتـابة، والتـفـاهم حول كل صـغـيـرة وكبيرة، والاتفاق بخط اليد. ثم انه لم يكن يجد أية غضاضة في الكذب. ولا يتـــحـــرج وهو يراوغ في الكلام مع زمــلائه التجار. ثم انه وهو يفاوض في إبرام صفقة تجارية لا يصارح برأيه ولا يعطي وجهة نظره الحقيقية في صفقة من الصفقات التجارية الا اذا اخطأ، او زل لسانه. وقلما يخطىء او يسمح للسانه بالزلل، لدرجة كانت تجعل زوجتـه الحاجة امـينة تصفه ـ في الجلسات العائلية ـ بانه يأخذ الحيطة والحذر حتى من ملابسه، ولا يثق باقرب المقربين اليه. وبرغم كل ذلك كان يتهم نفسه دائما بالسذاجة والغفلة، ولا يجد حرجا في ان يقول على رؤوس الملأ بأنه أكبر مغفل عرفه سوق القسارية بمدينة فاس، وكان يقول لولده الفقيه السي احمد. وكان هو ايضا يلقبه بالفقيه :

- اسمع ايها الفقيه يجب ان تنتبه. وترد بالك في التعامل مع الناس والله ياولدي، والله ثم والله، ان بعض الناس ذئاب عمودية وذئاب تدب في الارض على اثنين بدلا من ان تمشي على اربعة. من الناس ياولدي الفقيه من يستطيع ان يختطف اسنان الكلب قبل ان ينبح، ومنهم من اذا ساء حظك وصافحته يتوجب عليك ان تعيد عد اصابعك، فقد يسلبك اصبعا دون ان تشعر، ومنهم من يوريك الربيع ويلقي بك في الحافة كما يقولون وقولهم الحق.
- وهل معنى هذا ان الثقة مفقودة ياوالدي؟
- الثقة في التجارة هي ان تتعامل بالاتفاق، وتحترم الارقام. واهل زمان قالوا «حبني محبة أخيك، وحاسبني محاسبة عدوك». الثقة ياولدي هي أخذ الامور بالجد، والمعاملة من منطلق القاعدة التي تقول: عندي عندك مالك لك ومالي لي «ووجه الارقام لا يخجل من احد، وحتى عندما تتوفر ظروف الثقة بحكم التجربة في المعاملة مع بعض الحرفاء والزبناء الكرام الذين لاجدال في نزاهتهم وجديتهم واستقامتهم. فالثقة بهم يجب ان تكون بحذر وحيطة. الثقة المطلقة تساوي الحمق الكلي. ومن يقول او يعمل بغير هذا يصدم، تصدمه تصرفات بعض الناس، وتعذبه وتضنيه، اسمعني جيدا أيها الفقيه: ان حسن ظنك بالاخرين - واعني الافراط في حسن الظن بالاخرين - سيخلق لك متاعب لا نهاية لها. بعض الناس ذئاب، ولئام و«حوتة تخنز الشواري» أي سمكة نتنة، تشكك في سلامة حمولة كاملة.

- ومع ذلك ياوالدي الجوهر نقي، وحكم الاطلاق ظلم. أقول : لا. لا. جوهر الانسان نقي يا والدي.
- ومن نقاه؟ انت ؟ اي جوهر واي نقاء؟ لا ،لا، اياك والغفلة يا ولدي الفقيه، وانا انا المتحدث اليك اعرف ان بعضهم في السوق يسميني : «الحاج القاصح» وانا افضل ان اكون «قاصحا» صلبا على ان اكون كذابا ـ منافقا او مجاملا ـ لا أريد ان اتصف بالبلاهة والسذاجة والغفلة، يسخر مني كل من هب ودب من المحتالين ولصوص المجتمع.
- ولكن، بالله عليك قل لي يا والدي : ابهـذا الاسلوب في المعاملة كان جدي والدك يدير تجارته ؟ اكان جدي الحاج عمر يدين بمبدإ الشك في كل الناس ؟ على أي أساس كان يقيم علاقته مع الناس من العملاء والشركاء والزبناء؟ اكان يحتاط من جميع الناس ؟
- لا ابدا
- واذن؟
- ولكن الظروف غير الظروف والناس غير الناس. وعلى عهد والدي كانت التجارة نظيفة والمعاملات لا تشوبها شائبة. وكانت الثقة سائدة وللكلمة قيمة العقد الموثق، او الشهادة العدلية المسجلة، كانت الذمة والامانة والاخلاص والصدق. كان الواحد منا اذا تلفظ او تعهد بكلمة التزم بها وأوفى اذا قال : انا فاعل كذا وكذا او واعد بفعل كذا وكذا توج وعده بالوفاء. وكنا دائما نقول بأن : «الرجل هو الكلمة» والرجل الحق هو الذي يموت على كلمته، والرجل الذي لا يفي بكلمته نادر الوجود ومن لا كلمة له لا وجود

له. واذا وجد وعرف فهو أرذل الناس، لا أصل له ولا فصل لاثقة فيه، ورجل بلا شهامة ولا أمانة مشكوك في رجولته ويسميه كافة الناس : «الشماتة» او «الحتالة». ولكن اليوم، وفي هذا الزمن السيء تغير كل شيء تغيرت طباع الناس، وتغير الناس انفسهم، النماذج البشرية تغيرت. نعم انعدمت في جل اناس هذا الزمن الاستقامة. فشح المطر، وقلت الارزاق واختلطت علينا الامور. حتى اننا لم نعد نميز حتى بين الحلال والحرام في السلوك، في المعاملات في التجارة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

- ماذا اسمع يا والدي ماذا اسمع ؟ امتشائم انت الى هذا الحد ؟
- كانت صفقاتنا التجارية تتسم بالقناعة في الربح والصدق لدى الابرام، وكانت البركة، البركة في كل شيء. في القليل القليل، والكثير الكثير. كان الصغير منا ابنا لكل الكبار والكبير ابا لكل الصغار. الحياة كانت سهلة وبسيطة مطبوعة باليسر والعفوية. والله عندما اتحدث عن اناس الامس لاناس اليوم اشعر ان السامع يحسبني أخرِّف أو أهذي أو انسج من خيال سقيم. الجوهر نقي ؟ كان، نعم كان الجوهر نقيا. اما الان ارجوك يا ولدي دعني ألوذ بصمتي. ولا تُقوِّلني مالا يسرك سماعه. وعندما يحتد الحديث بين الفقيه السي احمد ووالده، ويصل هذا الحد يتدخَّل السي الخمار ليناصر صديقه الفقيه على والده بالمنطق ويجادله بالتي هي احسن. ولكن من هو السي

الخمار هذا الخمار الذي يستطيع ان يدخل في مساجلة مع الحاج الهادي الذي لا يعارضه، ولا يجادله احد باستثناء ولده الفقيه؟ السي الخمار صديق حميم للفقيه السي احمد، فهما معا متقاربان في العمر، والافكار والرؤيا لجل الاشياء، جمعتهما زمالة في طلب العلم بجامع القرويين فهما معا كانا منتسبين لهذه الجامعة العامرة، جاء الى مدينة فاس من قبيلة فشتالة وينحدر من سلالة مولاي بوشتى الخمار. والذي يحمل اسمه تيمنا به ومحبة من ابويه فيه.

عرف السي احمد اول مرة في القرويين حيث كانا معا يترددان على نفس المنابر ويتلقيان العلم من نفس الاساتذة والعلماء وسرعان ما تآلفا وتحابا وانسجمت طباعهما فنشأت بينهما مودة ومحبة، تطورت مع الايام الى صداقة متينة كانت مضرب الأمثال وبمقتضاها اخذ السي احمد يستدعي صديقه الخمار الى بيت والده تارة للغذاء وتارة للعشاء، وأخرى للمبيت اذا حتمت ظروف مراجعة الدروس ذلك. وحتى اذا لم تكن لذلك من ضرورة سوى ان يجتمعا ويكونا معا في مكان واحد. وهكذا عرف الخمار الاسرة وعرفته، واعجبت به، وبأخلاقه، وسلوكه. حتى الحاج الهادي «المشكاك» اعجب به وأحبه واستحسن صداقة ابنه له لما توسم فيه من نبل واستقامة وكرم اخلاق. وبمرور الزمن بدأ الخمار يتردد على «دار السلعة» بالديوان حيث كان الحاج الهادي يتاجر بالجملة، ثم على الدكان بالقيسارية الذي كان يديره السي محمد شقيق السي احمد «الفقيه» قبل ان ينتقل

بتجارته الى الدار البيضاء. هذا الدكان الذي كان يبيع بالتقسيط ونصف الجملة، وكان في الوقت ذاته صلة وصل بين الزبناء ودار السلعة في الديوان. كان الحاج الهادي يجلب السلع والبضائع من جميع الدول التي كانت لها معاملات تجارية مع المغرب وكان ماهرا في الشراء، حاذقا في البيع، ويتمتع بحس تجاري نادر المثال ودماغ فيه جل مواصفات الحاسوب قبل ان يوجد الحاسوب.

ولصدق السي الخمار ولطفه وامانته واستقامته وتحليه بكثير من الفضائل الحقيقية اضافة لكونه خدوماً ويبذل العون بتلقائية وعفوية، اصبح وفي ظرف وجيز قريبا من الاسرة مرتبطا بها اشد ما يكون الارتباط، حتى ان هناك من كان يحسبه واحدا من اعضائها وهو بصفة عملية منتسب اليها محسوب ضمنها لدرجة انه اصبح يستدعى للافراح والمناسبات الخاصة بصفته من اقرب المقربين لاسرة الحاج الهادي.

ويمر الزمن، وينقطع السي الخمار عن الدراسة ويتفرغ للعمل مع الحاج الهادي وولده الفقيه وبمقتضى هذا الانقطاع لم يعد من حقه السكن في « مدرسة رأس الشراطين » «دار الطلبة » ولهذا خصه الحاج الهادي بمصرية وهي عبارة عن منزل اضافي يجاور المنازل الكبيرة بمدينة فاس، ولهذا السكن المسمى « المصرية » حديث تفصيلي لاحق سيأتي في وقته ومكانه.

المهم ان السي الخمار اصبح من سكان المدينة لا كطالب، ولكن كعامل يتمتع بمنزل خاص به تشاركه الاقامة فيه والدته «للارحمة» وهي امرأة فاضلة يدل سلوكها وكل تصرفاتها على انها تنحدر من محتد اصيل ونبيل، وتعتبر ذاكرة شعبية حية لا نظير لها. فهي تستظهر عددا لا يحصى من الحكايات والخرافات والاساطير، والقصص الشعبية والامثال والاقوال، والحكم والعادات والتقاليد والاعراف، وهي إلى جانب كل ذلك تجيد فن الرواية، ولها جاذبية صوتية آسرة وتعرف كيف تؤثر بالصوت والنبرات، وتفرض الإصغاء والاهتمام والمتابعة على السامع وبهذه الصفات وغيرها من الفضائل اصبحت هي الاخرى محبوبةعند الاسرة، جميع أفراد الاسرة، وخصوصا الاطفال الذين كانوا يسمونها : امي رحمة ويقبلون على مجالستها والالتفاف حولها كلما جاءت زائرة أو ضيفة. فهي عندهم موضع حب واعجاب وتقدير لا تحده حدود. وللا رحمة هذه الى جانب كل ما سبق عنها تعرف عن مدينة فاس وأهل فاس، واعرافها وعاداتها وتقاليد سكانها ما يجهله البعض من ابنائها من ذوي العراقة والاصالة والانتساب البعيد الجذور اليها. لدى بداية العمل مع الحاج الهادي، لم يكن الخمار يتقاضى أجرا محددا واضحا فقد كان وهو المكلف «بالمصروف والنفقة» على الدار، كان من حقه ان يأخذ من مصروف «النفقة» كل ماهو في حاجة إليه مع والدته بما في ذاك بعض دراهم الجيب لقضاء الحاجيات اللازمة كأجرة الحلاق والحمام والأسكافي وما إلى ذلك.

وأما بخصوص الملابس فقد كانت تؤول اليه اشياء الفقيه السي احمد المستعملة من جلاليب وبدعيات وبلغات و«فرجيات»، وهذه الاشياء كانت تمنح له وهو ما يزال بعد طالبا في القرويين وبعد اشتغاله مع العائلة ـ هكذا كان يسمي أسرة الحاج الهادي. تطورت المنح فاصبحت تصل في بعض الأحيان الى الجديد من الملابس الفاخرة الغالية الثمن. والواقع ان الذي كان لا يعرف الخمار معرفة كاملة، لا يستطيع ان يميز بينه وبين أي فرد من اسرة الحاج الهادي على الاقل من حيث المظهر الخارجي. هذا بالاضافة الى ان السي الخمار كان وسيما ومتأنقا يحتفي بمظهره احتفاء كبيرا. ويحرص على ان يكون دائما نظيفا متطيبا، خصوصا لما سمع بالحكاية التي تروى عن سيدي عبد الرحمن المجذوب وعن مقولته الشهيرة : «كل التبن، وادهن شواربك بالسمن، ودوز على حبيبك وعدوك مصبن». وكان السي الخمار قد سمع والدته للا رحمة تحكي عن الشاعر الشعبي الفيلسوف الحكيم سيدي عبد الرحمن المجذوب قصة تقول : استدعي الشاعر الشعبي سيدي عبد الرحمن المجذوب لوليمة فلبى الدعوة وجاء للحفل بملابسه العادية الشيء الذي جعل الحلاقين ـ وهم الذين كانوا ينظمون الحفلات في جل المدن المغربية، ويقومون باستقبال الناس، وتصنيفهم واختيار مجالسهم حسب قيمتهم، واعتباراتهم وحيثياتهم ومواقعهم الاجتماعية- ثم وهذا هو المضمن من هذه الحكاية فالناس يصنفون حسب مظاهرهم الخارجية، فقد تعارف الحلاقون على الحفاوة بالضيوف حسب الاعتبارات السالفة الذكر، على قدر

ما عندك على قدر ما تسوى، فكبار الناس، ووجهاء المدينة لا يجالسون إلا نظراءهم واناس الوسط يجالسون اناس الوسط والمستضعفون يحشرهم السادة الحلاقون مع المستضعفين والحلاقون خبراء ماهرون في تصنيف الناس ومن مهامهم اعتبار امكنة الناس حسب مكاناتهم.

وهكذا، ولما أقبل على الحفل الشاعر المجذوب بملابس عادية، بادر الحلاقون الى استقباله، وتصنيفه فما لبث ان وجد نفسه محشورا مع الزمرة الضعيفة من الضيوف المهملين او شبه المهملين وجد نفسه مع المهمشين.

ففكر الشاعر الحكيم مليا والتفت يمينا وشمالا ثم تحيَّن فرصة انشغال الحلاقين بالضيوف المهمين وأعيان القوم، وانصرف دون ان يشعر به احد، وعاد الى بيته ونزع ملابسه العادية البالية، وارتدى أفخر ما حفلت به خزانته من ملابس « محترمة » واقفل راجعا الى المنزل المقام فيه حفل الزفاف وما ان أطل بملابسه الفاخرة وحلله الزاهية البهية التي جعلته يبدو مشرقا متوهجا مبهرا حتى هب لاستقباله الحلاقون بحفاوة بالغة وتجلة واحترام، وترحاب مبالغ فيه الشيء الذي لفت اليه الانظار، وافسح له الطريق الى ان وصل الى الغرفة المخصصة لذوي المكانة المرموقة من الوجهاء والأعيان والحيثيات المتميزة لاناس الحل والعقد. وقد جرت العادة في المغرب ان يتولى الحلاقون وقبل تناول الطعام تقديم « الطاست » للضيوف لغسل اياديهم. وهذه عادة دالة على الاحترام، احترام الضيف وتقديره ودليل أهمية تقديم

الطاست للضيف هو المثل القائل : « اللي جا بلا عرضة، ياكل بلا غسيل اليد » والمقصود ان « الطاست » لاتقدم للطفيلي والذي ياتي بلا دعوة. ولدى تقديم الطاست للشاعر سيدي عبد الرحمن المجذوب، قدم اكمامه للغسيل بدلا من يديه ولماسأله الحلاق : ماذا تفعل ؟ اجاب اغسل كمي اذ لولا كمي ما شبع او أكل فمي ». وهكذا اصبح القول مثلا جاريا على كل الالسن « لولا كمي ما يشبع فمي » وهذا ما يدل على ما للمظاهر من بريق ومالها من تأثير واعتبار في المجتمع.

ولهذا حرص السي الخمار كل الحرص على ان تكون مظاهره موجبة للاحترام سواء بالنسبة لمن يحترم الناس على قدر ملابسهم ومظاهرهم او بالنسبة لمن يحترمهم لذاتهم وجوهرهم.

على ان الحديث عن السي الخمار هنا، او عن بعض خصائصه او سماته التي تحدد معالم شخصيته ليس الا من قبيل التمهيد للاشارة الى شيء هام وحيوي، وهو الذي يعنينا بالدرجة الاولى ذلك ان السي الخمار كوالدته للارحمة، له اهتمامات بالتقاليد والعادات والاعراف والامثال الشعبية والأقوال المأثورة. وليس كسامع أو راو بل كمطبق محافظ على كل ما هو جميل ومحبب من تقاليدنا. وله شغف بلا حدود بالاستماع الى ما يقال وما يدرج على السنة الناس في أحاديثهم اليومية. كان يحرص على أخذ الحكمة من أفواه الناس. ولهذا كان يصيخ السمع باستمرار. والسي الخمار من ضمن الواردين الذين هضمتهم المدينة، فأصبح منها وإليها

خصوصاوانه جاء الى فاس صغير السن، وعلى قابلية واستعداد كبيرين للتأقلم والتكيف، الى جانب شغفه بالحكمة الشعبية وترصده لكل ما هو شفوي مما لا يوجد بالكتب ومما لم يدون جله أو حتى بعضه واقتصر تداوله على الذاكرة الشعبية وعلى ما ينقل من جيل إلى جيل عبر الحكاية الشفوية. ولوالدته التي عاشت فترة طويلة من حياتها بفاس ابلغ الاثر عليه في هذا الصدد. ثم ان صديقه الفقيه السي احمد هو ايضا كان من المولعين بما أصبح يصطلح على تسميته : بالتراث. ولعل هذا الاهتمام المشترك كان من عوامل تقوية أواصر الصداقة بينهما فقد كانا معا يصغيان باهتمام لكل ما يقال، ولكل ما يروى، حتى وهما يمران بالشارع كان من عادتهما اصاخة السمع لالتقاط المحادثات وطرق الاخذ والرد فيما يحتد او يلين من كلام بين الناس.

كان كل منهما أخا للاخر لم تلده امه، ولفرط دماثة اخلاق السي الخمار ولاخلاصه وتفانيه في العمل، منح الى جانب المحبة والاهتمام ثقة لا تمنح حتى للثقاة من اهل الصدق والورع والزهد والاستقامة المثالية، ولاسيما من لدن رجل يدعى الحاج الهادي بن الحاج عمر.

اندمج في أسرة الحاج الهادي، وارتبط بصداقة متينة مع ولده الفقيه السي احمد، حتى ان هناك من كان يناديه باسم اسرة الحاج الهادي، فلم يكن يتأفف، او يتحرج او يرفض مع ان الهادي كان يصر على ان ينادي الخمار بالشريف الفشتالي.

وبتوالي الايام، اظهر الخمار من الكفاءات والمهارات في التجارة والسلوك الحسن في المعاملات ما جعل الحاج الهادي يفتح له متجرا خاصا به تدرج فيه من شريك بالخمس الى شريك بالربع ثم بالثلث الى ان اصبح شريكا بالنصف وهي حظوة ما وصل اليها أي واحد من شركاء الحاج الهادي.

والى هنا وكل شيء يسير على احسن ما يرام : التجارة مزدهرة، العلاقات طيبة، النجاح يواكب كل الخطوات. نعم ! ولكن دوام الحال من المحال، فقد هبت على هذه الاسرة عاصفة هوجاء تمثلت في النذير الاول الذي حملته برقية وردت من الدار البيضاء تقول : اصيب السي محمد بن الحاج الهادي بوعكة صحية طفيفة، ويطلب من والده ووالدته الحضور العاجل الى البيضاء. وكان لهذه البرقية وقع الصاعقة في أوساط العائلة الكبيرة كلها.

وفي التو سافر الحاج الهادي وزوجته الى البيضاء حيث وجدا ولدهما السي محمد في حالة مرضية محيرة. الا أنها لا تدعو الى القلق، ولكنها في الوقت ذاته لا توحي بالطمأنينة بتاتا. فهو متوعك ولكنه يتحرك، يذهب الى متجره ويدير اعماله ويراجع حساباته، ويتكلم وكأنه لا يشكو من أي شيء، ولكن المتطلع اليه والذي يمعن النظر في وجهه يستشف بأن الرجل مريض متعب وفي حالة من الارهاق مقلقة مفزعة، وعلى الرغم من أنه كان يقاوم المرض الا أنه كان يلازم الفراش آحيانا ويستسلم لنوم طويل ثقيل، النوم المتعب المرهق الذي لا تتخلله راحة ولا هدوء وفي ظرف ثمانية أيام

فقط تدهورت حالته الصحية بشكل ملفت مخيف، الشيء الذي حتم بقاء الحاج الهادي وزوجته في البيضاء واستدعى تدخل أمهر الاطباء الذين خذلت حالة المريض المستعصية المحيرة كل وسائلهم وكل مهاراتهم.

وبعد مضي شهر على هذه الحالة المرضية الغامضة والتي حيرت الطب والاطباء لأن أي واحد منهم لم يستطع أن يحدد نوعيتها، مات السي محمد وهو يتكلم مع والده وهو في كامل وعيه :

- استمع الي يا والدي
- سامع يا ولدي
- اذا قدر، اقول فقط اذا قدر، وجاء أجلي
- ماهذا الكلام يا سيدي محمد، بعد سنين طويلة يا ولدي. بعد سنين طويلة ـ ذلك ما أرجو واتمنى يا ولدي. ولكن قلت ذلك : اذا. اذا جاء أجلي المحتوم فاني أوصي بالعصا لاخي أحمد.
- العصا. أي عصا ؟
- الخيزرانة للفقيه، أو لم يقل جدي الحاج عمر الخيزرانة للسي محمد، واذا مات تعطى لاخيه أحمد أو ليست هذه هي ارادته.
- سألتك بالله دعنا من الحديث في الموضوع
- ليس عندي ما أقول اكثر مما قلت

وينتقل الحديث بينهما الى اشياء أخرى تخص التجارة. وتخص العائلة ويتطور الحوار بينهما الى أن يصل الى

السياسة وهما بخصوصها مختلفان اشد ما يكون الاختلاف، والاختلاف في وجهات النظر السياسية شيء طبيعي واصيل وله عادات وجذور، ومنها على سبيل المثال : «قل رأيك نقول رأيي وحوض القسبور ماحنا فيه» ومعنى هذا المثل المغربي: ان الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية. بل ويجب أن ينتهي بلا مصادمة ولا عنف. وحتى لا يحتد الحديث بينهما كما جرت العادة يحول الحاج الهادي الدردشة بلطف ولباقة بعيدا عن كل ما يؤدي الى التوتر فيحكي لولده بعض المستملحات التماسا لبسمة يراها مشرقة على محيا ولده الذابل المرهق المنهوك. هذا الفتى الذي كان يقاوم ويكابد ويتشبثً بالحياة الى أن اغمض عينيه فحسبه والده أغفا، ولكنه كان قد اسلم الروح لبارئها.

تأثر الوالدان تأثرا بالغا لموت ولدهما، ظهرت انعكاساته على صحتهما وفي سلوكهما فقد كانا دائما البكاء والنحيب، فالسي محمد هو الولد البكر، وهو التاجر الموهوب النبيه الموفق النابغ المحظوظ. والذي يتحول التراب في يده الى ذهب. مات السي محمد وكان من المؤمل أن يخلف والده كما خلف والده جده في حمل مشعل التجارة الناجحة الموفقة، لحفظ اسم العائلة والابقاء على مكانتها في عالم «البيع والشراء» والمال الذي هو قوام الاعمال، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.

وبعد تصفية أمور التركة في البيضاء، والتي تمت بسرعة خارقة عاد الوالدان الى فاس وليس معهما من

مخلفات ولدهما الا تلك العصا التي أوصى بها لاخيه الفقيه السي أحمد. والخيزرانة هذه من التحف النادرة التي توارثتها الاسرة جيلا بعد جيل. ويقال ان أحد اجداد هذه الاسرة وكان يتجر في «مانشيستر» ببرطانيا كان قد صحبها معه. وكان يعكز عليها لاظهار جمالها وقيمتها الفنية أكثر مما يعكز عليها ليستعين بها على المشي. فهي خيزرانة بالدرجة الاولى للتباهي والخيلاء ولفت الانظار. ومما يذكر بالمناسبة أن حمل العصا وخصوصا اذا كانت من التحف الجميلة كان مما يكمل مظاهر الابهة والتفاخر والمباهاة. وقد اختلفت عِصِيّ المباهاة، وتفنن الصناع في ابداع انواع كثيرة منها واختلفت اثمانها باختلاف مهارات صناعها. ومع ذلك بقيت عصا الفقيه. وهكذا اصبحت تسمى - عندما آلت للسي احمد - سلطانة العصي بلا منازع في الاوساط الراقية بمدينة فاس.

كان السي احمد يحرص على أن يذهب بها للمسجد يوم الجمعة، كما يذهب بها الى بعض الحفلات العائلية الفاخرة، حتى اصبحت جزءا لا يتجزأ من شخصية الفقيه وكثيرا ما حاول بعض الاغنياء مفاتحته في شأن بيعها وبأي ثمن يطلب أو يحدد لأنها حقا كانت تحفة نادرة المثال مثيرة للاهتمام ملفتة للانظار ولكنه كان يرفض الخوض مجرد الخوض في هذا الموضوع.

ومنذ أن جاءت الخيزرانة الى المغرب من بلاد الانجليز على عهد الجد الاول وهي تورث بالوصية. فلا يرثها من الاسرة الا من أوصي له بها، وهو وحده الذي يملك الحق في ان

يختار من يحملها من بعده فيوصي بها اليه. وتطبيقا لهذه القاعدة فقد أوصى الحاج عمر بالعصا لحفيده السي محمد ولم يُوصِ بها لولده الحاج الهادي وقال بالحرف : اذا مات السي محمد تؤول العصا الى أخيه الفقيه، واذا كان المرحوم السي محمد قد أخذ العصا تنفيذا لرغبة جده فقط، فالفقيه حملها بفخر واعتزاز ولم يكن يستغني عنها طرفة عين حيث أصبحت قطعة منه، ممسكا بها دائما لا يفارقها ولا تفارقه منعوتا بحملها في المدينة كلها. ويسميه اطفال الحي : «الفقيه بوخيزرانة».

وكان لهذه الخيزرانة شهرة واسعة عريضة في أوساط عشاق التحف، وروداد اقتنائها من مجمعين هواة. وتجار خبراء متخصصين. والذي زاد في لفت النظر الى هذه العصا بالذات، هو الاستعمال الدائم لها وطريقة مسكها واسلوب التلويح بها من طرف الفقيه السي احمد.

بعد وفاة السي محمد بثلاثة أو أربعة أشهر لحق به والده الحاج الهادي متأثرا بفاجعته في ولده فقد كانت صدمته فيه كبيرة عنيفة عميقة. لم يستطع التغلب على آثارها فصار «يدق ويرق» - يهزل ويذبل الى أن اسلم الروح الى بارئها. فقال المعقبون : مات مفجوعا في ولده «مفقوسا» بمعنى مصدوما. وماكاد يدور الحول حتى توفيت الام، وتبعها اناس كثر من افراد العائلة واحد تلو الآخر، وكأن الموت اجهز على هذه العائلة فأخذ منها الطاعن في السن، والمتوسط في العمر، ومن هو في جوهر ريعان الشباب. الشيء الذي هز

الفقيه السي احمد بعنف. فانعكست آثار الفواجع العائلية على حياته الخاصة وحتى على سير تجارته من جراءِ تراكم المشاكل والمخلفات فاصبح ينحدر حتى وصل لوضعية من السوء والتردي لا يحسد عليها وبدأت صفقاته التجارية تتزعزع وتضطرب وتمنى بالفشل والخسارات الشيء الذي اكرهه على بيع الكثير من موروثات العائلة. ولكن الخسائر المتوالية لاحقته بشكل مذهل بالرغم من كونه حاول مسايرة السوق، وتطوير اسلوب تجارته، ومراجعة الاخطاء وتلافيها ولكن بدون جدوى فما من بضاعة حاول الاتجار فيها الا وشملها البوار والكساد مما نتج عنه افلاس مدمر مبيد جعله في محنة لم يعرف لها مثيلا اي واحد من افراد عائلته المشهورة بامتهان التجارة الشيء الذي عقده حتى انه بدأ يقول امام الناس في معرض الحديث عن نكباته وسوء حظه : « يخيل الي انني لو اتجرت ببيع الطرابيش لولد الناس بلا رؤوس ». والواقع ان فشل الفقيه السي احمد في التجارة والصفعات التي تلقاها فيها لم تكن تعزى لا لعدم الفهم او الخبرة ولا لسوء الحظ، ولا للجهل بحاجيات السوق وانما تعزى فقط لحالة الاحباط التي كان يعاني منها شخصيا، هذا الاحباط المعنوي الذي لازمه بعد رحيل أخيه وأبويه، وثلاثة من اعمامه وثلة من أقاربه في ظرف وجيز من الزمن وما خلفته هذه الوفيات من مشاكل وتراكمات، الشيء الذي افقده القدرة على التفكير والتركيز، والتصرف في الاتجاه الصحيح فاصبح لا يملك لنفسه من قرار واخذ يفقد القدرة على العمل ويستسلم لحالات من الشرود والذهول.

وفي الوقت الذي كان فيه الفقيه يواصل تلقي الصدمات، وتكبد الخسارات كان صديقه السي الخمار الذي استقل بتجارته يحقق الطفرات من نجاح الى نجاح وينتقل من مكانة الى مكانة صعودا، فتوسعت تجارته وكبرت مشاريعه وتنوعت اهتماماته واصبح من كبار التجار الناجحين المرموقين بمدينة فاس ولكن ظل وفيا للأسرة الحاج الهادي، صديقا حميما للفقيه السي احمد. وخصوصا لما قرر هذا الاخير اعتزال التجارة والناس ودنيا الدراهم و« البيع والشراء » واعتصم في بيت اسرته المشهور بالمدينة وهو كل ما تبقى من ممتلكاته، وموروثاته التي بيعت عن آخرها ولم يعد يحتفظ الا بهذا البيت وبعض التحف والخيزرانة التي ترمز للرفاهية المدبرة وتختزل امجاد العائلة التي تبدلت احوالها. ومع ذلك ظل الفقيه السي احمد محافظا على كل مظاهره، وطقوسه وأبهة ملابسه حتى ان الذي يراه في المسجد يوم الجمعة بملابسه الفاخرة وخيزرانته - التحفة الرائعة - لا يكاد يميز بين الفقيه الغني، والفقيه الفقير. لا يكاد يفرق بين فقيه الامس وفقيه اليوم حتى مشيته باسلوب الخيلاء لم تتغير وطريقة تلويحه بالعصا لم تتغير ونظرته المتفحصة المتأملة في الناس وكيفية تبادل التحايا بين الناس لم تتغير. واهم من كل هذا ايقاع حياته المنزلية لم يتغير مع انه مفلس، فقير معدم، ولا يشتغل. واذا سئل كيف يعيش ؟ ومن أين ؟ يجيبك من علم الغيب او كما يقول المغاربة «دبابها كريم» بمعنى : مدبر الارزاق كريم ومع ذلك يبقى السؤال مطروحا ؟ كيف ضاعت امواله ولم تتغير

احـوالـه ؟ لـم يتـغـيـر أي شـيء فـي ذلك الـرجل ولـم تـسـتطع النكبـات ان تبـدل فـيـه أي شـيء. فـبـقى كـمـا هـو وكـمـا كـان إنسـانـا خـارق الاحـسـاس كـريم الـنفس لطيـف المعـشـر رقـيـق الحاشـيـة عـفـيـف اللفظ يشـخـص الرجل العـادي الـودود، والفقيـه صاحب الفلسفة في الحياة وله فـيـها مـوقـف، ولـم تـخذلـه او تـنل منـه الصدمـات بـالـرغم من أنـه يـبدو سـالبـا ومـسـتسلمـا.

انتـقلت لـلارحـمـة إلى بـيت الـفـقـيـه بمبـادرة شـخـصـيـة، ومـبـاركـة من ولـدهـا الخـمـار الـذي حـبـذ الفـكرة وزكـاهـا وتـولـت مـهـمـة الاشـراف على تـسـيـيـر شـؤون الـبـيت، وتـربـيـة الاطـفـال ورعايـة شـؤونـهم، ومـسـاعـدة امـرأة الفقيـه الـتـي وجدت صـعـوبـة جـمـة فـي الـتكيف والـتـأقـلم مع ظـروف زوجـهـا الاقـتـصـاديـة الجديدة. وحـفـظت لـلبـيت مكانتـه الـتي كـادت تـتـداعـى نـتـيـجـة للتحـول من حـال الـى حـال.

وعـلـى الـرغم مـن ان لـلارحــمــة كــانـت تـقــوم بكل شـيء، وتـشرف على كل كـبـيـرة وصـغـيـرة فـقـد كـانـت لـبـقـة حـاذقـة تـوحـي بـالـقـول، والـفـعل بـالـلطف والـتـصـرف الـى زوجـة الـفـقـيـه بـانـهـا هـي ربـة الـبـيـت الحـاكـمـة الآمـرة الـنـاهـيـة، صـاحـبـة الـقـول الـفـصـل والـرأي الـذي لا يـجـادل ولا يـنـاقـش كـمـا انـهـا حـرصت عـلـى مـنـاداتـهـا دائـمـا «لـلا» سـيـدتـي.

بـقـي ان نـعـرف ان نـفـقـات الـبـيـت وحـاجـيـات الاولاد بما فـي ذلك الحـرص على مـتـابـعـة الدراسـة والملابس. والادوات، وكل مـا يـحـتـاجـون إلـيـه من كل صـغـيـرة وكـبـيـرة كـان مـكـفـولا مـتـيـسـرا

موجودا يفي الحاجة ويزيد وذلك بتعاون. وتظافر من زمرة كريمة من اناس الخير قاطبة وخصوصا منهم اولئك الشركاء القدماء للحاج الهادي الذين بدأوا أولى خطواتهم التجارية بماله وفي دكاكينه وبمساندة كاملة من مهاراته وخبرته وتجربته وتوجيهاته. هؤلاء وغيرهم من اصدقائه كلهم اليوم يقفون مع الفقيه والى جانبه في محنته معه في ضرائه كما كانوا معه في سرائه. يساندونه في ظروفه القاسية باشراف السي الخمار الذي ظل دائما ذلك الصديق الصدوق الحميم، والاخ الشقيق الذي لا يعرف، ولا يمتحن الا في الازمات والاوقات الحرجة الضيقة والحالات التي تشبه حالة الفقيه.

فقد نظم لصالحه مع تلك الزمرة الخيرة من اصحاب الفضل والفضائل ما يمكن ان نسميه بالمصطلح المعاصر «التقاعد المريح» في اطار من التضامن الموشح بسرية تامة حفاظا على سمعته ودم وجهه امام الملأ.

وضل يتردد على بيت صديقه الفقيه كما كان قبل النكبات تماما، وكأن شيئا لم يكن. كما حرص على مرافقته بلطف لأداء صلاة الجمعة. واذا اهمل الفقيه الخيزرانة او نسيها ذكره بها بل والزمه بلباقة بوجوب حملها بصفتها جزء لا يتجزأ من شخصيته ويلح عليه ـ ودائما بلباقة ولطف ـ ان يمسك بها، ويلوح بها بطريقته المعهودة، والمتسمة بنوع من الخيلاء ليتأكد من هو في حاجة الى تأكيد بأن الفقيه السي احمد بن الحاج الهادي بن الحاج عمر ما يزال كما كان غنيا كل الغنى، كريما كل الكرم والتكريم، عزيزا ترعاه عيون التقدير

وتحتضنه بالمحبة، والرعاية قلوب مفعمة بالوفاء، وعقول واعية متحضرة تعرف الواجب وتحسن القيام به. وتعرف المروءة والاصول والاعراف، وقواعد التكافل والتعايش وتتشبث بها وتحافظ عليها. حتى لا يهان العزيز ولا يذل الكريم أو ليست حكاية الخيزرانة هذه مشابهة في كثير من تفاصيلها لمسرحية : « بستان الكرز » لتشاكوف..؟

« النبارون »

« النبارون » مفردها « النبار » والاشتقاق طبعا من فعل « نبر » وقد بحثت في القاموس عن فعل نبر بمعنى افتى أو وجه، أو اشار، أو أفاد او حتى تدبر في امر ما فلم أجد هذه الكلمة بهذا المعنى اللهم إلا إذا أخذنا فعل أبرا كما يؤبر الفلاح النخيل وهذا التعبير « النبار » في اصطلاح هواة لعبة « الداما » هو المرشد، او المفتي، وهو ذلك المتفرج المشارك المتحمس، والذي غالبا ما يرى « النقلة الخفية » واللعبة التي تؤدي إلى النصر، والحركة الحاسمة التي تعرف عند رواد الداما بـ « ثلاثة ودامة » او « الزيادة » ـ النقلة ـ القاتلة والتي تسمى عندهم بـ « التمام » هذه النقلة أو الحركة أو الزيادة التي غالبا ما تتعذر رؤيتها على اللاعبين فلا يراها الا المتفرج النبار، تحدث نوعا من البلبلة فالنبار اذن هو ذلك المتفرج المتجاوب مع سير احداث الجولة والمنفعل بها والمشارك فيها بفكره ومتابعته والمأخوذ بانتقالات البيادق لدرجة تجعله لا يملك نفسه ولا يستطيع ان يلتزم بالصمت، او

يكون متفرجا محايدا فهو لفرط انفعاله بالمتابعة يعطي الفتوى ويشير على من وقع من اللاعبين في مأزق باللعبة المثلى او نقلة الخلاص وتسمى «التنبيرة». اما المفتي أو المرشد فيسمى «النبار» وهو بنصائحه المجانية وغير المرغوب فيها في كثير من الاحيان لما تؤدي إليه من شنآن وخلافات ورفض قاطع خصوصا بالنسبة لمن تكون الفتوى -التنبيرة- لغير صالحه، فيتعكر الجو وتفسد على المنتصر متعة النصر، فيثور ويفور، ويهدد بالويل والثبور، وعواقب الامور. وكثيرا ما تحدث «التنبيرة» ضجة كبرى، وهرجا ومرجا، وبناء على ذلك حدث ان احد النبارين أخذ عهدا على نفسه بل أقسم بيمين الطلاق انه لن يعود ابدا «للتنبار» وانه سيتفرج على جولات الداما بين اللاعبين بعين محايدة ولسان ملتزم بالصمت وانه لن يكون ابدا لامع الغالب ولامع المغلوب. وظل لمدة كبيرة يتردد كعادته على المقاهي التي يرتادها هواة لعبة الضامة، ويتفرج بالحياد الايجابي، لاينبه المنهزم ولا يساعد المنتصر، الى ان جاء يوم وجد فيه ولده يلعب مع احد الابطال المشهورين المهرة، وكان ولده قد وقع في فخ كبير، ومأزق خطير، في جولة معقدة شائكة فوقف يتأمل أوضاع البيانق ويفكر وولده على حافة الاستسلام والانهزام واذا به يعثر على لعبة الحل على «التنبيرة» - الفتوى - فما العمل ؟ انه ملتزم بالحياد واكثر من ذلك فهو قد أقسم بيمين الطلاق وهكذا وجد نفسه في حيرة وبعد تردد اتسم بالغليان وبثورة مكبوتة اندفع مشيرا قائلا لولده :

اعطه هذا البيذق وزده هذا ثم أضف اليه هذا الثالث وخذ منه ثلاثة بياذق واحتل الداما وقل لخصمك : انه مهزوم ولوالدتك انها طالق.

شرب ماء البياذق

مما يروى عن النصر والهزيمة في لعبة الداما ان طعم النصر حلو كالعسل او هو بتعبير هواتها : «احلى من الشهد» أما الهزيمة فهي مرة كالحدج أو أمر والذي يريد أن يمارس لعبة الداما عليه أن يباهي بالنصر، ويستمتع بحلاوته، وينتشي بنشوته، وهو حق يخوله له انتصاره ولكن عليه ايضا أن يتجرع مرارة الهزيمة بصبر أيوب باعتبارها من أمر الهزائم على الاطلاق. وعلى هذا ينصح المعلمون الماهرون المتمكنون من أسرار اللعبة الهواة الجدد بان عليهم قبل البدء في ممارسة اللعب أن يغلوا البياذق وهي مصنوعة من عود الدفلة ذي الطعم المر، ويحتسون منه كأسا كل صباح على «الريق» والا ما استطاعوا أن يتجرعوا الهزيمة و«هزيمة الداما حرة مرة حدجة دفلة» لايتقبلها بالصدر الرحب الا من كان صابرا، صبورا، صبارا، ثم وهذا هام وحيوي في لعبة الداما أن على الهواة وقبل البدء في ممارسة اللعب ان يتعلموا اولا كيف يحاورون خصومهم اذ الحوار والكلام له أهمية بالغة فعلى اللاعب ان ينتصر بالقول قبل الفعل ولهذا نجد الكثير من الملتفين حول اللاعبين للفرجة لا يهمهم النصر او الهزيمة بقدر ما يهمهم ان يستمتعوا بحلاوة المحاورات الذكية الرائعة التي تتخلل جولات اللعبة فكل واحد من

اللاعبين يحاول ان يعقد خصمه فيتهمه بالغفلة والسذاجة وحتى البلادة لينال من معنويته اذ المنهزم الحقيقي هو المنهزم معنويا، ولهذا يكون التراشق بالعبارات الحادة مواكبا لكل التحركات وتنقلات البيادق والمنهزم في معركة الحوار غالبا ما تطمس بصيرته فيرتبك ويرتكب الاخطاء التي تؤدي به الى الهزيمة ومن نماذج الحوارات التي تسبق او تتخلل اللعب:

- قبل ان تمد يدك لتدفع ببيادقك الى الهلاك المحقق يجب عليك ان تقول لي صباح الخير ايها المعلم فانت تعرف أنني لا ألعب مع قليل الادب ان احترامي وتجلتي دين في عنقك وليكن في علمك انه عندما يتنازل معلم ماهر «شديد» مثلي ويلعب مع مبتدىء ليس له لا دربة ولا خبرة «مزود، مثلك»، فان هذه أقصى درجات التواضع ونكران الذات، والشديد في اصطلاح هواة الداما هو المعلم الماهر الكبير والذي لا يشق له غبار. اما المزود، فهو المبتدىء الذي لا يكاد يعرف ابسط القواعد التي تقنن تنقلات البيادق.
- ليس من حق ذي البصيرة المطموسة العمياء، ان يلعب الداما ؟ لعب الداما فن الاذكياء النبغاء الموهوبين فإما أن تكون ذكيا «فايق» و«عايق» نبيها لبيبا فنرحب بك في حضرتنا واما ان تكون غبيا بليدا لا تعرف «كوع من بوع» دماغك مسدود وحسك جامد منكود، فنقول لك : انصرف واختر لك هواية في حجم عقلك الصغير.
- الداما لعبة العباقرة من اصحاب العقول الكبيرة والادمغة الجبارة المتفتحة المشرقة الوهاجة.

- الداما ميدان الموهوبين فإما ان تكون موهوبا، وإما أن تترك الميدان لاصحابه، وكفى الله المعلمين شر التسيب.
- الداما ليست في متناول كل من هب ودب.
- التسيب يضر بمصداقية اللعبة أَيْنَ كُنْتَ ؟ كنت في المقهى العب الداما. والى اين انت ذاهب ؟ الى المقهى لألعب الداما. هذه فوضى، هذا منتهى التسيب، كان الله في عونك يامن ليس لك قدرة على الصبر والاحتمال.
- لم يعد للعبة الداما رقيب، ولا محتسب، لا نقيب، ولا عريف، ولا أمين.
- اتعرف أيها «المزود» الكريم انك يمكن ان تمارس كل الالعاب وتنتسب لكل الهوايات إلا لعبة الداما فهي في واد وأنت في واد.
- كن على يقين سأجرعك مرارة الهزيمة.
- من عادتي - انا العبد لله المتواضع - ان اطعم الكلب
- حاشاكم - عظما في الصباح وأعطيه النخالة طيلة النهار. والعظم هنا كناية عن كلمة قاسية جارحة مرة مريرة، لا تبلع بسهولة. أما النخالة فتعني اللوذ بالصمت، وعدم الاجابة عن أي سؤال أو الرد على أية اهانة مهما كانت وبأي اسلوب صيغت.
- سألتكم بالله اجيبوني معشر العقلاء الحكماء، ايجوز لمن عضه كلب أن يقوم هو أيضا بعض الكلب ؟
- تعلمت أن انتصر على الكلاب بالتغاضي عن النباح، القافلة تسير...

- انا حرمت على نفسي اللعب مع غير اقراني ومن هم في مستوى مهارتي عملا بالمثل المغربي القائل : «اللي خلط نفسه مع النخالة ينقبه الدجاج» ومع ذلك تزل قدمي، وألعب مع امثالك.
- عندما تريد اللعب معي اقتني رقعة صغيرة في حجم عقلك الصغير واصحب معك «الفتوح» وتعالى عندي يوم الخميس، لانه اليوم الذي اخصصه للمبتدئين من الهواة امثالك، وسأتولى تعليمك مبادئ الخطوات الاولى في اسرار لعبة الداما وأجري على الله. وعلى الرغم من الحدة التي يتسم بها الحوار الذي يتخلل جولات لعبة الداما، كان الود الحقيقي يسود بين اللاعبين. كما كان الاعتراف بمهارة الابطال الماهرين سائدا. ومايزال. واحترام اللاعبين الكبار خاصية واكبت اللعبة في جميع انديتها أو المقاهي التي كانت تقام فيها المباريات.

وعندما كان يشتهر احد الابطال بالمهارة والنبوغ والتفوق والباع الطويل والانتصار على كل أبطال المدينة. كان يشد الرحال للمدن الاخرى بحثا عن أبطالها المرموقين لينازلهم في عقر دارهم. واسوة بالشطرنج كان هواة الداما يتعارفون فيما بينهم في جميع انحاء المغرب، فانت اذا سألت عن بطل مدينة ما، قيل لك فلان واذا انهزم وضاعت منه البطولة يعرفونك بمن أخذها منه، من هزمه وحل محله في البطولة وبسرعة مذهلة تنتشر شهرته ويذيع صيته ويصبح البطل المعروف. ثم ان لعبة الداما لم تكن تسمى عند

قدمائنا : هواية، وانما كانوا يسمونها : بلية والهاوي يسمى : «المبلي» بمعنى المبتلى وبالمفهوم القديم للبلية ذلك ان هاو لعبة الداما يعطيها من وقته الكثير، ومن هواتها من ينقطع لها كلية وينصرف عما عداها ثم انه لا يريد من ورائها أية منفعة أو فائدة سوى المتعة والتلهية وضياع الوقت. المتعة للمتعة ولا شيء غير ذلك، وهذا ما يؤثر على مردوديته المادية.

واذا كانت لعبة الداما تحقق المتعة الفكرية وتحقق الانتشاء بحلاوة النصر فهي تصرف بعض المولوعين بها لدرجة الشغف عن اعمالهم التي هي مصدر ارزاقهم فتسوء احوالهم بل يتحول بعضهم من عامل أو صانع أو تاجر أو طالب الى متسكع يعطي للعبة كل شيء من غير أن يأخذ منها أي شيء.

ومما يحكى في هذا الصدد أن أحد التجار مر بمقهى فوجد أحد أبنائه يلعب الداما بانقطاع، وانسجام لانظير لهما فتقدم منه وهمس في اذنه: لقد عصمك الله ياولدي من مشكلة السوسة، فقمحك لن يسوس ابدا والمعنى الخفي في هذه المقولة هو أن ولده الشغوف بلعبة الداما والمنصرف اليها لن يكون بوسعه ابدا أن يوفر المال ليشتري به قمحا يخزنه فتأكله السوسة لأن الداما نهبت وقته ولاعب الداما كلما زاد فيها مهارة تضاعف زهده في جمع المال ومن كان وقته كل وقته للداما «فقمحه لا يسوس ابدا».

« النبارون » (2)

ونعود لفعل « نبر » بمعنى أفاد أو أرشد أو وجه أو تدبر أمرا يخص غيره أو أفتى في مشكل معقد فوجد له الحل أو بالتالي نصح فنجد أن النصح في حياتنا الاجتماعية كان يلعب دورا هاما وبالغ الحيوية والايجابية فقد دأب الناس على استجداء النصح والتماس الفتوى. نعم كانوا يستفتون غيرهم من العلماء، والعقلاء، والحكماء، وأصحاب الخبرة، والحنكة، والتجربة. هؤلاء عرفوا بمدينة فاس بصفة خاصة « بالنبارين » وهذا هو لقب الخبراء والحكماء من ذوي الآراء السديدة في جميع مرافق الحياة. وقد درج الناس على الرجوع اليهم للاستشارة واخذ الرأي وحتى الحكم والفصل في العديد من القضايا المعقدة الشائكة. وعلى هذا فالنبار في العرف والاصطلاح الشعبي هو : المفتي، والمفتي هو الحكيم العاقل المحنك المجرب، صاحب الرأي السديد والقول الفصل في جل الامور ان لم نقل في كل الامور، فالنبار في الذاكرة الشعبية هو ذلك الرجل النزيه الوقور المحترم، والذي يوزع الحكمة بالمجان ويتطوع لحل مشاكل الاخرين وبدون هدف أو غرض أو أجر، وأجر « التنبار » والافتاء، على الله الواحد الاحد. ولهؤلاء « النبارين » مسجد بفاس يسمى : « جامع اللبارين » نسبة إلى أسرةِ آل الأبّار، وهناك من يسمي هذا المسجد : « جامع النبارين » نسبة لأصحاب الرأي والافتاء، بصفته مقرهم الرسمي.

والحقيقة التي لا جدال فيها ان هذا المسجد كان مقصد طلاب الحكمة والرأي السديد لدى اهل الحكمة والرأي السديد.

ولقد تعددت مهام هؤلاء «النبارة» وتنوع فضولهم المحبب حتى طال كل مرافق الحياة، ولم يكن دورهم يقتصر على اسداء النصيحة حتى لمن لا يطلبها اذا تبين لهم انه في حاجة اليها، او اذا جاء من يخبرهم بان فلانا يجتاز أزمة او مورط في اشكالية معقدة لم يجد مخرجا منها. والصور متنوعة متعددة، والقصص التي تحكى عن فضول هؤلاء «النبارين» في الوساطات الخيرة، والتدخلات الايجابية الرشيدة بين الناس لا يحدها حد، ولا يحيط بعدها عد، فهي كثيرة جدا. ومتنوعة أكثر من جدا، واسوق هنا على سبيل المثال لا الحصر هذه الحكاية التي سمعتها تروى وانا صغير وما زلت اسمع من يحكيها الى يومنا هذا، وتتعلق القصة بشاب من أسرة كبيرة، شاب جميل، ومستقيم، وعلى جانب كبير من النباهة والفطنة، وهو الى كل ذلك ميسور من الناحية المادية، واسرته تتمتع بسمعة طيبة في جميع الاوساط، ومع ذلك فقد تزوج أكثر من مرة ولم يعمر زواجه بسبب كراهية المرأة له أو كما يقولون وكما يقولون : «المرأة الكارهة» وهذا هو الاصطلاح المعروف لدى الجميع عندما تصر امرأة على رفض رجل، والامتناع عن الاستمرار في الزواج به، أو تطلب الطلاق على هذا النحو : «هذا الرجل ما نشوفه، ما نراه، لا عند ربي، ولا عند عبده، لاف الدنيا، ولاف الاخيرة» ولا يكلف الله نفسا الا وسعها، وكانت المرأة اذا أجهرت بمثل هذا القول،

يسمونها «الكارهة» والكارهة لا تُكَرَهُ على ما تكره، ومعنى ذلك انها وصلت في علاقتها مع زوجها الى الباب المسدود، ولم يعد هناك مجال لوصل ما انقطع بينهما أو رتق ما انفصم، ولم يعد هناك من سبب للمصالحة ولا للوساطة، ولا لاي محاولة قصد ارجاع الامور بين الزوجين الى نصابها.

وهكذا تزوج هذا الشاب مرات عديدة، ورفضته كل الزوجات وبنفس الاصرار، وعين التصميم ، مع كل ما يتمتع به من المواصفات السالفة الذكر، وشاع امره وانتشرت اخباره في المدينة بسرعة مذهلة وعرف جل الناس ان هذا الشاب مكروه، او كريه عند النساء الى ان ينتهي امره الى علم «جماعة النبارين» التي تتحرك بسرعة، نعم تتحرك الجماعة الخيرة صاحبة المساعي الحميدة، والمبادرات الانسانية الرائعة، والباحثة دائما عن الحلول المناسبة لكل العقد المعقدة، فتتوجه في البحث عن سبب هذه الكراهية، ماذا عند هذا الرجل مما تكرهه النساء ؟ ماهي عيوبه ؟ ماهي نقائصه ؟ ولماذا اتفقت النساء على النفور منه، ورفض معايشته ؟ وتبدأ تحرياتهم، وتقصيهم في البحث عن الرجل من حيث الرجولة والفحولة، والاستقامة في الممارسة الجنسية وعندما يتأكد لديهم ان الرجل رجل وانه طبيعي وبعيد عن كل شذوذ وانحراف، يواجههم سؤال، لماذا ترفضه النساء ؟ وبالاستمرار في البحث والتقصي يتضح لهم ان للرجل رائحة كريهة في فمه، رائحة لا تطاق لدرجة تكره النساء كافة النساء على كراهيته، وتجعلهن يزهدن فيه، برغم مزاياه التي لا تعد ولا تحصى، واذن ما العمل ؟ وخلال مداولة جماعة

النباريـن في هذه المشكلة والبحث لها عن الحل انبرى احدهم قائلا : وجدت الحل، نعم وجدت الحل، والحل الامثل، ابنة فلان جميلة رائعة من ألطف خلق الله قاطبة، وهي من اسرة مناسبة لأسرة هذا الشاب ويمكن ان تقبله وحتى فلان والدها يمكن ان يوافق. واعتقد ان هذا الزواج يمكن ان يستمر ويعمر وان هذه الفتاة لن تكون كارهة ابدا. فتساءل الآخرون وكيف؟ ومن اين اتى صديقنا بهذا الحل السحري لهذه المشكلة؟ فيجيبهم : انها بكل بساطة فتاة فاقدة لحاسة الشم. وبهذا المعطى يمكن ان تكون الزوجة المناسبة للزوج المناسب.

ودور «جماعة النباريـن» هذه كان بارزا بخصوص المصاهرات، وله أهمية خاصة في مسألة «التناسب» لتحقيق التفاهم، والترابط، والتراص، فهم - بحكم الحكمة والتجربة والخبرة الكبيرة في معرفة الناس معرفة عميقة متجذرة - يعرفون ما يناسب هذه الاسرة من اصهار وما يصلح لتلك من نسباء.

ولم يكن دورهم يقتصر على الزواج أو الوقوف في وجه الطلاق أو اصلاح ذات البين بين الزوجين، وانما كانوا يقومون بدور الحكماء في كل مرافق الحياة، ويجدون الحلول المناسبة والملائمة لأعقد المشاكل وأعوص القضايا الشائكة المحيرة المستعصية.

وحكايات تدخلات «جماعة النباريـن» واسهاماتها في ايجاد الحلول لمشاكل كل الناس، كثيرة ، متعددة، متنوعة،

حتى انه كان يقال لمن ضاقت به السبل، وسدت في وجهه الابواب عليك «بجامع اللبارين» ولابد ان تجد لدى روادها من الحكماء الحلول المناسبة لكل مشاكلك.

فماذا تنتظر؟! انهم مؤهلون للفتوى الناجعة الحاسمة وبالمجان فلا تتردد واطلب عندهم النصيحة، تجدها جاهزة، حاضرة، نافعة وكريمة طيبة، صادرة عن عقول كبيرة، وقلوب يملأها الخير وحب الناس وارادة تثبيت آصرة التعايش.

والحقيقة ان ظاهرة وسطاء الخير، والتقريب بين وجهات النظر المتعارضة وحتى المتناقضة كانت قائمة بين السكان على أسس من الثقة في حكمة الحكماء، ونزاهة احكامهم، ووجاهة آرائهم، فاذا اشاروا فاشارتهم موضع احترام وتقدير واذا قالوا فقولهم الفصل، والرضوخ لحيثياتهم من اوجب الواجبات، وهو أيضا يمثل التزكية الجماعية لوجود هؤلاء «النبارين» المتطوعين الذين اتسم عملهم التطوعي بالكثير الكثير من الايجابيات، رغم ماكان يوحي به احيانا من فضول سالب، أو حشر للانف لا موجب ولا وجوب له. كان دورهم فاعلا، في احكام روابط الود وارساء قواعد التعايش والتساكن، والالفة والمودة بين الناس.

العالم والفقيه والمجالس

اما ان تطلب الفتوى من عالم جليل راسخ في العلم وخصوصا اذا تعلق امرها بمسألة الدين، وفقه الدين فانت

تتجه الوجهة السليمة الصحيحة وتعطي بذلك القوس الى باريها. واما ان تلتمسها من فقيه نبيه مجتهد وعلى بينة من أمره. والفقيه في العرف الشعبي هو صاحب الكُتّاب الذي يلقن فيه القرآن الكريم للاطفال، وهو أيضا الطالب في جامع القرويين، وكان يسمى الفقيه، والفقيه ايضا هو ذلك المجتهد المتفقه في شؤون الدين وهو بهذا الاعتبار ممن يمكن الرجوع اليه في طلب الرأي، والتماس النصيحة والتوجيه والارشاد، وللفقيه بهذه الحيثيات أهمية لا تكاد تقل عن أهمية العالم الكبير بهذا الخصوص، وجل العلماء الكبار كانوا يلقبون بالفقيه، ولقب الفقيه اذا أسبغ على عالم كبير، يضعه في مكانة سامية رفيعة ويجعله موضع تجلة، واحترام واكبار.

واذا كان لكل من العالم والفقيه مكانه ومكانته وقيمته، وفوق كل هذا اختصاصه، فان الفقيه في بعض الحالات يمكن ان يقوم مقام العالم بخصوص تقديم النصح، والوعظ والارشاد، واذا كان مسلما بالرجوع اليهما عندما يتعذر علينا ايجاد الحلول لبعض المشاكل التي تواجهنا في الحياة، وليس في ذلك ما يدعو للدهشة، او العجب، ولكن الذي يدعو للعجب هو ان نطلب الرأي، والنصيحة او التوجيه والارشاد من رجل لا يقرأ ولا يكتب، وخصوصا اذا تعلق الموضوع، بامور الدين ومع ذلك...

نعم، ومع ذلك هناك الرجل الحرفي الذي لا يقرأ ولا يكتب، ونلجأ اليه لأنه جدير بأن نطلب منه الرأي، ونلتمس عنده النصح، والتوجيه والارشاد، وهو مع كونه صانعا فقط،

فـهـو اهل للتـقـدير والاحـتـرام، لماذا؟ لانه يجـالـس الطلاب والفـقـهـاء والعلمـاء، ورجـال الفكر، يـسـتـمـع ويفـهـم ويـسـأل ويبـحـث ويتـقـصى ثم يتطور نتـيـجـة للمـجـالسـة والملازمـة للعلمـاء، فـينتـقل من الاسـتـمـاع والسـؤال ومـحـاولـة الفـهـم والاسـتـيـعـاب، الى النقـاش، والمشـاركة في الجدل وبالتي هي أحـسـن، ويقـارع الرأي بـالرأي، والـنـازلة بـالحـجـة الفـقـهـيـة والمقارنـة العلمية ـ لانه اكتسب الخبـرة، والمهارة والقدرة على المحـاورة والاخـذ والرد وهـذا مـا اعطى للمـجـالس نوعـا من المصداقية والمرجعية.

وهـذا النمـوذج من الناس كـان يسـمـى ـ ولعله مـا يزال ـ بالمجالسين، فكان الناس اذا تحدثوا قالوا : فلان عالم جليل، وفـلان فـقـيـه نبـيـه، وفـلان مـجـالس وعلى بـال، والمجالس في عـرف العـوام لـه أهـمـيـة لا تقل في بعض الحـالات عن أهـمـيـة العـالم والفقيـه، بحيث يمكن الاستفادة من خبـرته ومـجـالسته للعلمـاء والفقهـاء واهل الحكمـة من ذوي العقول الكبـيـرة، ومما يروى في مدينة فـاس بالذات عن هؤلاء المجالسين ان منـهم من كان يستظهر الف حديث نبوي شريف فـأكثر، ويستظهرها باختلاف رواياتها، واسناداتها، وأسماء رواتها من الصحابة الكرام، وبالاشـارات الى مـصـادرها بكل العنعنات حتى الوصـول الى قـول رسـول الله صلى الله عليـه وسلم، ثم التنصيص على الصحيح المتـواتر وهو الحديث الذي رواه جـمـاعـة من الصـحـابة يستـحـيل تواطؤهم على الكذب على رسـول الله صلى الله عليـه وسلم، ثم رواه عنهم جـمـاعـة من

التابعين يمتنع تواطؤهم على الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم الحديث الحسن، والحديث الضعيف وامثال هؤلاء المجالسين كانوا كثر في بيئتنا المجتمعية. اناس من الحرفيين أو التجار، أو العمال، لا يقرأون ولا يكتبون ولكنهم يجالسون أهل العلم، والفكر والمعرفة، ويتنورون بالسمع، والسؤال والمواظبة على الالتفاف حول المنابر التنويرية، والحلقات التي كانت تعقد لصالحهم، ولفائدة توعيتهم، هذه المنابر، وتلك الحلقات التي تتيح الثقافة الشعبية، وتهب للناس هؤلاء المجالسين، الذين كان لهم دور هام وفاعل، دور حيوي في خلية المجتمع الذي كانوا ينتسبون إليه، في خلية الحرفيين والعمال وأصحاب الحرف اليدوية والمهن التقليدية، وكافة أفراد الشعب من الاميين واشباه الاميين، فقد كان «المجالس» يتمتع باحترام الناس، يستشار في كل الامور ويعمل برأيه ويرجع إليه في بعض الاحيان حتى في المسائل الدينية، لا كعالم ولا كفقيه، وإنما كمجالس، واذا كان كل من العالم والفقيه يحظيان بالتقدير الكبير، والاحترام الجم فان المجالس هو الآخر كان موضع اكبار واجلال اذ كانت صفة المجالس عند عامة الناس تداني في الاحترام والاكبار صفتي العالم والفقيه حتى ان منهم من كان يفضل في المكاشفة والمصارحة، وعرض المشاكل الدقيقة المجالس على العالم، والفقيه باعتباره الاقرب إليه من جهة، والاقرب اليهما معا من جهة أخرى، ويمكن ان يكون صلة وصل في نقل الاسئلة المحرجة المعقدة من طالب النصح إلى الناصح ، من المسترشد الى المرشد.

اما العلاقة بين المجالس وكل من الفقيه والعالم فقد كانت تنطلق من بداية تردد الحرفي على منابر التنوير، والتوجيه، والارشاد، وبحكم المواظبة والالتزام بالحضور اليومي، وتوجيه بعض الاسئلة الاستفسارية لصاحب المنبر، كانت تتيسر سبل التعرف بين العالم ومريده، ورويدا رويدا تتطور المعرفة الى ربط العلاقة، فيصبح المجالس المواظب من جلساء العالم واحيانا من اخلص اصدقائه وخواصه المتطوعين لخدمته، وبهذه الملازمة التي تتحول في بعض الاحيان الى نوع خاص من الحميمية، تخول للمجالس ان يتزود من العالم وان يغرف من معين المعرفة ما يكسبه مهارة وخبرة، ويمنحه عن جدارة واستحقاق لقب المجالس، ومن اخص خصائص المجالس : الأذن المصيخة. والفكر الواعي اليقظ المنتبه، والجرأة وعدم التحرج في طرح الاسئلة الكبيرة الدقيقة الشائكة بكلمات صغيرة بسيطة سهلة وعفوية والقلب المفتوح المؤمن والاحساس العميق بأن على الانسان أن يتعلم وان يستوعب ويفهم. وان يكون ذا ذاكرة تستظهر وتختزل وبالرجوع الى «جماعة النبارين» نجد أنها تتكون من جميع فصائل المجتمع ففيها العالم والفقيه والمجالس والمعلم الحرفي والصانع الماهر والخبراء في جميع مجالات الحياة.

وفي كتاب «العروة الوثقي» للعالم الجليل «الفقيه الحجوي» ذكر لصانعين اثنين باسميهما كان الفقيه يرجع اليهما اذا تعذر عليه أمر البت في نازلة يحتاج فيها للخبرة المهنية والدراية بخفايا الامور التقنية الحرفية وهذا ما يص

يصطلح عليه في وقتنا الحاضر : الاستعانة بالخبراء. والخبراء أو أصحاب الخبرة وقد عرفوا في بلدنا بـ «شيوخ النظر» وسأخصهم بحديث تفصيلي لاحق، المهم ولاهمية الصناع والحرفيين فقد كانت علاقتهم بالعلماء والفقهاء وثيقة العرى اعتبارا لمكانتهم الفاعلة في المجتمع المتحضر وهذا ماكان موجودا قائما في حياتنا اليومية راسخا ثابتا في اصالتنا وتقاليدنا وعاداتنا ومن هنا نستطيع أن نكون فكرة دقيقة عن تشكيلة «جماعة النبارين» ونوعية تركيبتها.

لدي بنت جاهزة
أو لدي ولد جاهز

سادتي «النبارين» المحترمين لدي ولد جاهز للزواج وجئت اقصدكم وأنقر بابكم فبمن تشيروا علي من الناس للمصاهرة والمناسبة؟ أو بالتعبير العامي «النسوبية» وانتم العارفون بخبايا الامور : من تصلح لولدي؟ ومن يصلح لها؟ واذا كان من الناس من يطلب المساعدة من هؤلاء ليجد لولده الزوجة الصالحة والمناسبة فالامر في هذه الحالة في منتهى اليسر والبساطة وليس في هذا التصرف ما يدعو للدهشة أو العجب أو الاستغراب. انه امر عادي ولكن الذي يقصد هذه الجماعة في طلب زوج صالح لابنته الجاهزة للزواج فهذا حقا ما يدعو لبعض العجب أو حتى الدهشة وبعض الاستغراب على الاقل في وقتنا الراهن. واعتقد أن قلة قليلة من اناس حاضرنا «المتحضر» والمتعجرف هم الذين يستطيعون ان يمدوا اياديهم في طلب المساعدة في هذا الباب. من منا اليوم

يستطيع أن يقصد «جماعة النبارين» إذا افترضنا انها ماتزال على قيد الحياة، ويقول جهارا : سادتي «النبارين» المحترمين لدي بنت جاهزة للزواج وجئتكم في طلب زوج صالح من أسرة مناسبة؟ ومع ذلك فهذا واقع حي كان قائما في مجتمعنا ولا يتحرج منه أحد خصوصا من الاسر التي كانت تحكمها عادة الحرص والتشدد في ان لا تخرج المرأة من البيت الا مرتين في الحياة مرة الى بيت زوجها والمرة الثانية الى مثواها الاخير، وفي هذا الصدد روجوا لمثل يقول: أخطب لابنتك ولا تخطب لولدك، واصبح المثل شائعا ومعمولا به ذلك أن الولد يمكن أن يجد من يخطبه بسهولة وقد يقول قائل ان هذه العادة مغرقة في القدم، وان الحياة تطورت والمرأة فكت من عقالها وخرجت للحياة وأصبحت الند للرجل في كل مرافق العيش يتاح لها كل ما يتاح له وقد تصبح وزيرة أو رئيسة الوزراء في القريب العاجل كل هذا حق وواقع لاغبار عليه، وتبقى مسألة الزواج الناجح من اعقد مشاكلنا الاجتماعية اعتبارا لارتفاع نسبة الطلاق المهولة وليس معنى هذا أن الطلاق كان شيئا نادرا في حياتنا ولكن نسبته بالقياس الى نسبة الطلاق في حاضرنا المتحضر لايمكن أن تكون موضع مقارنة أو مقاربة. وانما الشيء الذي استنتجته من ظاهرة «جماعة النبارين» : أولا العمل بالاستشارة، ماخاب من استخار وما ندم من استشار. ثانيا: أن تصرفات الناس كانت تتسم بالحكمة واستعمال العقل، وتضبطها واقعية مثالية وتوجهها البساطة والعفوية والعمق والفهم الواعي للحياة. ثالثا: معرفة الناس العميقة لدى

جماعة النبارين فهم يعرفون جل الاسر والعائلات ويعرفون عن احوالها الشيء الكثير ويعرفون من يناسب من، ومن يصلح لمصاهرة من، بغض النظر عن تصنيف الناس من حيث الاعتبارات والمواقع الطبقية والمادية والفكرية وفي هذا الباب يروجون لمثل مغربي آخر يقول «المناسبة شرط» ليعمر الزواج ويستمر ويكلل بالبنين والبنات والثبات والنبات، فلابد لمن يحاول أن يقارب بين اسرتين أن يراعي الظروف الاجتماعية لكل منهما، حتى لا يحدث اي خلل يؤدي الى التفكك والتصدع ومن هنا جاء تأكيدهم على المقولة : «المناسبة شرط» وليس المهم أن يتزوج ابن فلان من ابنة فلان ولكن المهم أن يستمر الزواج وان يعمر وتلك هي قمة النجاح في مهمتهم الاجتماعية التي يمليها فضول تطوعي ايجابي دوافعه انسانية بحتة.

ثم ان توخي عناصر التكامل وتوفير اسباب التفاهم بين الاصهار بالدرجة الاولى ساعد على تحقيق الزواج الناجح وانشاء الاسر المترابطة التي كفلت للزواج حرمته وقدسيته والوساطات كانت تقوم بتحريات كثيرة ولمدد طويلة ولم تسقط من حساباتها ابدا المثل المغربي القائل : «ميات تخميمة وتخميمة ولا ضربة بالمقص» فالزواج مسألة اناة وترو واخذ الامر بالعناية الفائقة والجد أو لا يقولون : «زواج ليلة تدبيره عام» ويقولون ايضا : «اختر لابنك الاصول واختر لابنتك الرجول» وهذه الامثال والحكم والاقوال المأثورة لم تكن مجرد شعارات تردد ولكنها كانت قواعد إرساء أسس

الحياة الزوجية والاجتماعية وفي كل مرافق التعايش والتساكن كانت قواعد إرساء دعائم الثوابت اجتنابا لكل خلل أو تصدع قد يؤدي الى التفكك والانفصام وهذا ماكان السعي من أجل مقاومته واجتناب حدوثه وهو هم جماعة النبارين وشغلهم الشاغل.

«التنبيرة» الفتوى

وتأكيدا لما اسلفت من حديث عن دور هؤلاء «النبارين» في الحياة الاجتماعية وعمومية تدخلاتهم وشموليتها وما طبع هذه التدخلات من نزوعات الاسعاف والتطوع بالنجدة اسوق هنا حكاية هذه الفتوى التنبيرة الذكية الرائعة.

يحكى ان سمسارا جاء ذات يوم عند احد التجار الكبار وعرض عليه «همزة» «بيعة وشرية» والهمزة أو البيعة وشرية هي الصفقة الرابحة أو الفرصة النادرة وتتمثل هذه الصفقة في ثلاثة دكاكين معروضة للبيع وتوجد بموقع ممتاز في سوق تجاري دائب الحركة كثير الرواج اضطر صاحبها لبيعها ليسدد ديونا تراكمت عليه فهو اذن سيبيع هذه الدكاكين الممتازة «بيع المحتاج» أو بيع المضطر أو بالتعبير العامي المغربي «بيع الملقوف» لان الحاجة القصوى اكرهته على بيعها...

يتحمس التاجر ويتم الاتصال بالمالك والاتفاق معه على كل التفاصيل ويتحدد ثمن البيع بالف ريال لكل دكان وهذا

القدر الذي يبدو الآن زهيدا ضئيلا تافها الف ريال ثمن دكان في موقع تجاري ممتاز؟ الف ريال نعم! كان الالف ريال يمثل مبلغا ضخما من المال يسيل له اللعاب كما يقولون ويكفي أن تكون الالف ريال ثمنا لدكان في أحسن الواجهات والمواقع التجارية ذات الحركة والرواج في القسارية، هذا في الوقت الذي تفشى فيه الغلاء واخذ الناس يستنكرون هذا الغلاء الفاحش: اللهم ان هذا منكر حانوت في القسارية بالف ريال، ماهذا؟ واين نحن؟ والى أين نسير؟

المهم تم الاتفاق بين البائع والمشتري ولدى ابرام العقد واتمام الصفقة اشترط البائع ان يكون التسديد فوريا ودفعة واحدة، الشيء الذي تعذر على المشتري لانه مضطر للسفر الى ما نشستر حيث له تجارة في بريطانيا التي كان يستورد منها ويصدر اليها بعض السلع والبضائع وهو في وضعه المالي الحالي لايستطيع أن يدفع الثلاثة آلاف ريال دفعة واحدة ويطلب مهلة شهرين وهي المدة التي سيتغيب فيها عن مدينة فاس ولدى عودته مباشرة يتم التسديد على أن يدفع للبائع الف ريال كعربون. وهنا يسأل البائع: واذا لم تتيسر لك الدراهم؟ انا لا اريد ان التزم معك بعقد بيع معلق في الهواء ومرهون بعودتك من سفر تركب فيه البحر، وكما يقولون المسافر في حكم الله كلنا في يد الله ولكن الموت ياسيدي حق. اذا تعذر عليك امر التسديد في حدود انصرام الشهرين ماالعمل آنذاك؟ وكيف نتصرف؟ اذا لم ادفع لك الالفين ريال المتبقيتين في ذمتي وفي حدود الاجل المتفق

عليه تطبق في حقي المقولة التجارية المشهورة : «اللي ندم يتكل عربونه» من لم يف بالتزاماته في وقتها المحدد المضبوط ضاع عربونه ولاحق له في المطالبة به وتكون انت في حل من كل التزام. بهذه الكلمات الواضحة التزم المشتري نعم انا سأركب البحر. والبحر كما يقول العامة : «داخله مفقود والخارج منه مولود» اسمع يا سيدي اذا مت أو إذا انصرمت مدة الشهرين ولم اسدد، فلك الحق في أن تعتبر الالف ريال ملكا خاصا لك وحلالا طيبا وانت حر بعد ذلك في أن تتصرف في دكاكينك الثلاثة كما يحلو لك فلم يكن من البائع الا أن يقبل هذه الشروط بكل طيبة خاطر.

ولكن لدى الشروع في كتابة العقد بشروطه السالفة الذكر رفض احد العدلين ان يكتب عقدا تبين له انه عقد مجحف مغبن وقال : انا لا أكتب مثل هذا العقد واذا كتبه غيري لا ازكيه حتى بالعطف لأنه من وجهة نظري عقد ظالم ومجحف بحق المشتري، وذلك لان مبلغ الالف ريال كان مبلغا ضخما من المال مع أن المشتري هو الذي اقترح صيغة العقد وفحواه.

ولكن البائع اصر على ان يتم العقد بشروط ملزمة حتى لاتبقى دكاكينه معلقة بين الشفيع والرحيم كما يقولون مرهونة لا هي بالمبيوعة ولا هي قابلة للبيع أو الاستغلال كما أصر العدل على عدم كتابة هذا العقد.

فذهب كل من البائع والمشتري عند عدلين آخرين فلم

يجدا من يبارك هذا العقد بهذه الشروط أو يقبل أن يحرره أو يسهم فيه وبقي العقد معلقا الى أن جاء من يشير عليهما باستشارة جماعة النبارين، فقد يجدون لهما حلا لهذا العقد أو تنبيرة تفتح امامهما الباب المسدود خصوصا وان الصفقة مغرية مكسبة مربحة بالنسبة للمشتري وغير مجحفة ولا مغبنة بالنسبة للبائع واذن ما العمل وما هو الحل ؟ الحل الذي يرضي الطرفين وتطمئن له ضمائر العدول ؟

فكر «النبارون» وتدبروا في امر هذه «البيعة وشرية» واذا بواحد منهم يقول : وجدته نعم وجدته. ماذا وجدت؟ قال لهم : وجدت الحل ولعله الحل الامثل والمعقول والذي قد يرضي الجميع ولا يجحف أو يغبن أحداً.

وهكذا تقدم بسؤال الى كل من البائع والمشتري معا : أهذه الدكاكين من قيمة واحدة ولها نفس المواصفات من حيث البروز والواجهة في السوق أم هي متفاوتة؟ فكان الجواب : الحوانيت في صف واحد ومع ذلك فهي متفاوتة القيمة من حيث لفت النظر فالاولى المواجهة مباشرة للباب أحسن من الثانية من حيث لفت انظار الناس وايضا من اقبالهم والثانية أهم من الثالثة، وهنا قال صاحب الفتوى التنبيرة، لو بعنا هذه الدكاكين كل واحدة على حدة لكان ثمن الاولى اغلى من الثانية والثانية أغلى من الثالثة اليس كذلك؟ قد يكون، هكذا أجاب كل من البائع والمشتري اذن ما رأيكم - يقول صاحب «التنبيرة» - ان يتم العقد على هذا النحو : اذا تيسرت الدراهم للمشتري في الاجل المضروب وسدد ما

بذمته فالدكاكين الثلاثة كلها له واذا لم يتيسر له ذلك يأخذ من الحوانيت الثلاثة الاقل قيمة تجارية اي الدكان الثالث في الترتيب من حيث الاهمية ويكون من حق البائع أن يبحث عن مشتر آخر وكفانا الله شر الحيف والاجحاف والغبن والظلم من أي نوع كان ومن أي مصدر أتى.

ويؤمن على هذا الاقتراح كل من البائع والمشتري ويشهد به العدلان من غير ادنى تردد لان «التنبيرة» ذكية ووجيهة حكيمة الفتوة صائبة.

«التياس»

عندما كان يحتد الخلاف بين الزوجين ولا تستقيم بينهما الحياة الزوجية ويتعكر الصفو ولا تطيب بينهما معاشرة أو تستقر معايشة وتصل حدة الخلاف بينهما الى الباب المسدود غالبا ما ينتهي الحسم في الخلاف الى الطلاق.

ويحدث ان يكون المطلق والمطلقة مرتبطان بعلاقة حب قوي وكبير، الا أن الحب شيء والتوافق والتآلف، والترابط والتفاهم ووحدة الرؤيا للاشياء شيء آخر، وهذا ما ينتج عنه الخلاف الذي يؤدي الى طلاق الندم. ذلك أن الطلاق الذي يمثل الحل الوحيد في أمر حسم الخلاف هو في نفس الوقت الطلاق الذي لا يستطيع في كثير من الأحيان أن يقطع بالفصل في مسألة الحب. مادام الحب ما يزال قائماً. وما دام الحب من أهم الروابط في الحياة الزوجية الى جانب عنصري : التفاهم والانسجام وهنا تطرح معادلة : العشق بلا تفاهم والتفاهم بلا

عشق وهذا موضوع شائك سجالي ويحتاج الى الكثير الكثير من النقاش، والجدل والاخذ والرد والدراسة والتحليل فقد نجحت أسر بالحب وحده ونجحت أسر أخرى بالتفاهم وحده، ونجحت أسر بهما معا، كما ترابطت زيجات بالحب واستطاع الحب أن يخلق التفاهم ويحقق التعايش. كما استطاع التفاهم وحده ان ينتج الالفة التي تطورت مع الزمن الى الحب.

واذا انتهى امر الخلاف بين الزوجين الى الطلاق وهو أبغض الحلال عند الله فالطلاق ليس هو القطيعة الابدية خصوصا اذا كان الحب قائما، في هذه الحالة تعاود محاولة رتق الصدع، وتهب الهمم الخيرة لاصلاح ذات البين بين الزوجين المفترقين بالطلاق فيعود الشمل الى الالتئام ويحل الوئام محل الخصام.

الا أن العناد والتعصب والتشبث بوجهة النظر بالاضافة الى التوتر والمزاجية، والاندفاع وغياب المرونة، وعدم التنازل وفقدان القدرة على التحكم في الاعصاب، وضبط جماح النفس الامارة بالسوء كل ذلك قد يؤدي الى الطلاق للمرة الثانية. وحتى للمرة الثالثة.

وفي حالة حدوث : «طلاق الثلاث» يصطدم العاشقان بالندم من حيث لا ينفع الندم، واذن لابد للصدع من رتق وكيف السبيل الى ذلك وقد وقع المحظور. المسألة في غاية التعقيد، اذ يتوجب ان تتزوج المطلقة برجل آخر وتتطلق منه ليباح للزوج المطلق المتسرع الرجوع الى زوجته التي يحبها

وتحبه ولكنهما على خلاف في السلوك والطباع والامزجة. وبغض النظر عن مصدر عدم التفاهم ومن أي ناحية أتى، المهم هو أن يعود الشمل الى الالتئام والزوجان العاشقان الى الوئام، ولكن، نعم ولكن، كيف؟ وما العمل؟ الشرع واضح، ولابد أن تتزوج المطلقة ببعل آخر وتتطلق منه. فالزوج المطلق لايجد صبرا على زوجته الحبيبة المطلقة ولا يتخيل مجرد التخيل أن يتخلى عنها بصفة نهائية أو أن يتزوج مرة أخرى بامرأة أخرى غيرها وهنا تبدأ عملية البحث عن الحل أو بعبارة ادق البحث عن (الحلاّل) عن الزوج الصوري الذي يلقب بـ (التياس) الى جانب (الحلال) الذي يقبل أن يتزوج اليوم ويطلق غدا في مقابل قدر من المال يتفق عليه مع من يهمه أمر هذا الزواج. وغالبا ما يتم اختيار (التياس) من تلك الفئة الفقيرة المعدمة من الناس. ويتم اختيار (الحلال) بكل دقة وعناية. الرجل الذي يقبل (زواج ليلة) ثم ينصرف الى غير رجعة وللفقه في هذا الزواج الصوري الكثير مما يقال: وللعوام مقولة بليغة في هذا الموضوع بالذات : « لاحيلة مع الله ».

ومن اطرف ما سمعت في هذا الصدد : أن أحد هؤلاء العاشقين المتيمين المتوترين المنفعلين المزاجيين والمتسرعين الذين لا يملكون كبح جماح انفسهم ولازمام اعصابهم فيطلقون لاتفه الاسباب ويعيدون الطلاق الى ان يصلوا (للطلاق الثلاث) الى الباب المسدود، قُلْتُ ومن اطرف ما سمعت وامتع ما يُحْكى ان واحدا من هؤلاء طلق زوجته الحبيبة للمرة الثالثة ولم يبق امامه للعودة اليها الا باب : (الحلال) أو

(التيـاس) وهكذا كان يسمى الزوج الصوري ولما وجده اتفق معه على ان يعقد على مطلقته الحبيبة بطريقة : (زواج ليلة) ليلة واحدة لا غير مقابل قدر من المال يتسلمه عقب اتمام الطلاق مباشرة. الا ان الرجل الزوج (التيـاس) اشترط ان تكون الليلة ثلاثا عملا بمقولة (ضيافت النبي ثلاثة أيام) وبعد اخذ ورد ومفاوضات شاقة قبل المطلق العاشق شروط الحلال والتي تنص على ان يدوم الزواج الصوري ثلاثة ايام بلياليها بدل يوم وليلة ولما انصرمت الايام الثلاثة، وكأنها قرون ثلاثة بالنسبة للمطلق النادم العاشق الولهان، قصد التياس يطلب منه الوفاء بالتزاماته، الا ان الحلال طلب مهلة اخرى باستعطاف وتوسل:

الحلال : سيدي الكريم النبيل الفاضل الاصيل المحترم، ارجوك ان تمنحني مهلة ثلاثة ايام اخرى، اتوسل إليك بالذي ننتظر جميعا شفاعته سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وسالتك برافع السماوات بغير عَمَدٍ ان تتصدق علي بثلاثة ايام لا غير، لقد مرت هذه الثلاثة ايام الاولى وكأنها طرفة عين، بحيث لم أشعر بمرورها، ان افضالك الكثيرة تلك التي شملتني بها جعلتني افقد القدرة على الشعور بمضي الزمن، فزدني زاد الله في فضلك وكرمك هذه الايام الثلاثة.

المطلق : ثلاثة أيام فقط، ثلاثة أيام لا غير، ثم تطلق، لا تماطل ولا تتلكأ ولا اي عذر من الاعذار.

الحلال : وهو كذلك

المطلق : يجب أن تكون رجل كلمة، رجلا يلتزم بتعهداته،

ويحترمها.

الحلال : انا فعلا احترمها، انت رجل كريم، ولابد ان تكون من أصل أصيل ومعدن نبيل. فزدني - اطال الله عمرك - من كرمك خلال هذه الايام الثلاثة ومن النعيم الذي لم احلم به في حياتي قط وعيشنى في جنة الدنيا ثلاثة أيام أخرى، وبعدها لك أن تلقي بي في جحيم الطلاق المكروه.

المطلق : المكروه؟

الحلال : نعم او ليس الطلاق هو ابغض الحلال عند الله.

المطلق : ولكن لا تنسى أننا اتفقنا.

الحلال : لم انس

المطلق : وانك ستحصل على قدر هام من المال بمجرد ما يتم الطلاق كما ينص على ذلك الاتفاق المبرم بيننا.

الحلال : اعرف ذلك، واعرف كيف احترم التزاماتي، وانا على ضعفي رجل كلمة، وكلمتي احسن من عقد موثق.

المطلق : ثم يجب ان لا يغيب عن فطنتك أنك تزوجت بالمجان، وستطلق بالمقابل.

الحلال : قدر من المال لم احلم بالحصول عليه، اعرف ذلك.

المطلق : ولماذا المماطلة اذن.

الحلال : طلبت ثلاثة أيام أخرى لا غير، لا غير.

المطلق : وبعدها تطلق.

الحلال : نعم اطلق، وأنت لولا جودك وكرمك. ما كنت لانعم انا وزوجتي.

المطلق : زوجتك.؟

الحلال : اقصد السيدة مطلقتك، زوجتنا معا، أنا حاليا، وأنت ماضيا، ومستقبلا، نعم ياسيدي، لو لم تكن أنت الراعي لنا بالنفقة الكريمة الباذخة لما استطعت ان أتزوج لحظة واحدة، أتعرف يا سيدي أنك رجل رائع، رجل ممتاز، والحق يقال زوجتني وتتولى مهمة الانفاق علي، أنا وزوجتي كل هذا لوجه الله والانسانية، شيء لم يستوعبه عقلي الصغير.

المطلق : شريطة أن تطلق بمجرد انصرام الثلاثة أيام، أو ليس هذا جوهر الاتفاق الذي تم بيننا.؟

الحلال : نعم، نعم، وأنا لا أطلب أكثر من ثلاثة أيام أخرى فقط، ثم اطلق كن مطمئنا، سأطلق أحببت أم كرهت، الزواج في حاجة لامكانيات وأنا كما تعلم عاطل، ولا أملك من حطام الدنيا أي شيء، وأعتقد أنك لهذه الاسباب اخترتني للقيام بدور الزوج الصوري دون غيري، حقيقة أن الزواج نعمة من نعم الله، ولكن اذا توفرت فيه اسباب الاستقرار المادي والمعنوي، أما الزواج بالجيب الفارغ فتلك هي التعاسة التي ما بعدها تعاسة، أصارحك ياسيدي الكريم أنني كنت اسمع وأنا صغير هذا المثل، أو هذه المقولة (الله يجيب اللي يزوجنا ويخدم علينا، وتشوف الرجال اش تعمل) ولم أكن افهم لا المعنى ولا المغزى لهذا المثل أو المقولة، ولكن لما تزوجت على حسابك

وعرست على نفقتك وعشت الايام الثلاثة الماضية على كرم أفضالك وعطاياك رجعت لهذه المقولة متأملا وقلت في سري، المغاربة حكماء، اذا تصرفوا فبعقل وحكمة، وإذا قالوا قولهم لاجدال في عمقه ووجاهته وأنا خلال هذه الثلاثة أيام الرائعة التي منحتني فيها بفضلك وكرمك، عروسا حسناء، وأسبغت علي فيها من ملابسك الفاخرة ما أنساني نكبتي في العراء، وأعطيتني من اطعمتك المتنوعة الباذخة ما جعلني انسى تقشفي، ان لم اقل جوعي وصيامي الدائم الذي أنا مكره عليه.

المطلق : طيب، طيب، سأمنحك ثلاثة أيام أخرى، وكفى ثرثرة، ولكن ليكن في علمك، الطلاق بعدها مباشرة.

الحلال : اطمئن الطلاق بعد ثلاثة أيام، وستسدد لي المبلغ المتفق عليه...؟

المطلق : تماما.

الحلال : وهل لي أن أطلب منك شيئا آخر، لا أعتقد أنه فوق امكانياتك أو أنه يعز على نخوتك وكرمك. أريد أن أعيش هذه الايام الثلاث على الكباب فقط. أنا مشوق للكباب

المطلق : الكباب؟

الحلال : اللحم الطري، اللحم الفتي، كم أنا مشتاق لاكل اللحم يا سيدي وأقسم لك بشرفي أنني لم أتذوق طعم اللحم منذ زمن بعيد، أنت رجل ممتاز، رجل نادر المثال، رجل في منتهى الروعة.

المطلق : المهم، المهم، اتسمعني ؟

الحلال : سامع ياسيدي.

المطلق : المهم أنك ستطلق وكفى ثرثرة.

الحلال : بعد ثلاثة أيام، نعم سأطلق، وألوذ بالصمت، ولن أعود للكلام أي كلام، ولا للثرثرة. أي ثرثرة

المطلق : وعلى هذا تم الاتفاق والسلام ختام. ومن نكث. يتولاه الله بعقابه الشديد.

ومضت الثلاثة أيام الثانية، وجاء المطلق النادم وقد أخذ منه الانفعال والتوتر كل مأخذ، ونقر باب السيد الحلال أو التياس.

الحلال : من ينقر الباب في هذا الصباح الباكر، وبهذا العنف؟

المطلق : أنا

الحلال : «يقلده مستنكرا» أنا؟ ومن تكون أنت في الآنات يا هذا الانا؟

المطلق : قلت لك أنا الحاج فلان

الحلال : سيدي الحاج فلان، صباح الخير، اهلا وسهلا ومرحبا، أرجوك ان تنتظرني قليلا ريثما ارتدي ملابسي، إنني آت إليك، آت وكل آت قريب.

وتركه ينتظر مدة طويلة وهو يدرع الزقاق جيئة وذهابا وكأنه يسير على الجمر، وبعد انتظار طويل مر. وممل. خرج إليه باسما.

الحلال : سيدي العزيز، الفاضل المحترم الكريم، لماذا تسحب

يدك من يدي بهذه الغلظة؟ لا لا والله انك غير محق، دعني اقبل اليد النبيلة، دعني ألثم الراحة الطيبة، أقبل اليد السخية. الطاهرة التقية النقية، اتعلم ياسيدي - وأنت لاشك سيد العارفين - تعلم ان للحلال في المعاشرة الزوجية متعة خاصة، وطعم خاص، نعم صدقني ليس كالحلال شيء. حتى في ظروف حالة زواجنا الصوري، ولا اعتقد ان مثل هذه المتعة - أقصد الحلال - تغيب عن نباهتك وفطنتك، وتجربتك. نعم، نعم، واقولها بالصوت العالي : ليس كالحلال في المعاشرة الزوجية أي شيء. ولكن يا سيد الفقهاء، قل لي بربك،نورني، زواج مثل زواجي أنا وبهذه الحيثيات والمواصفات. زواج يقصد به الطلاق، أهو مباح...؟ اقصد حلال...؟

المطلق : استمع إلي جيدا، اتسمعني ..؟

الحلال : سامع يا سيدي، سامع، انا كلي آذان صاغية

المطلق : ستصحبني الآن، حالا، إلى عدلين لنتمم اجراءات الطلاق.

الحلال : ذلك ما كان في نيتي ان افعل هذا الصباح، ولكن حدث مالم يكن في الحسبان.

المطلق : ما لم يكن في الحسبان..؟

الحلال : نعم.

المطلق : وماذا حدث؟

الحلال : زوجتي

المطلق : زوجتك ؟

الحلال : اقصد مطلقتك، السيدة زوجتك السابقة. أتسمعني

المطلق : ماذا حل بها ؟

الحلال : كل خير.

المطلق : وماذا تريد أن تقول ؟

الحلال : أنا ؟ ليس لدي ما أقول. وإنما هي التي طلبت مني ان ألتمس منك باسمها، مهلة ثلاثة أيام أخرى.

المطلق : زوجتي تطلب منك أنت أن تلتمس مني أنا، باسمها مهلة ثلاثة أيام أخرى..؟!

الحلال : «ببرودة» وهو كذلك

المطلق : ماذا أسمع.. وماذا أرى..؟

الحلال : تسمع الحقيقة المجردة، وترى الواقع الذي لاغبار عليه.

المطلق : كيف؟

الحلال : هو ما سمعت

المطلق : أي واقع هذا الذي تتحدث عنه الأن..؟

الحلال : أعترف أنه قد يكون واقعا مفجعا. وحقيقة مرة ولكن الواقع واقع. والحقيقة حقيقة. وقديما قالوا : لا يتجرع الحقيقة المرة ويواجه الواقع المرير. بشمم واباء. إلا الرجل الشهم البطل.

المطلق : ياللعجب...؟ زوجتي تطلب منك انت أن

الحلال : «يقاطعه ويتابع» ألتمس منك اعطائنا. منحنا ثلاثة أيام إضافية - خارجة بنود الاتفاق - ثلاث أيام «وفاية»

المطلق : العجب، هي، هي، هي، التي

الحلال : نعم، نعم، هي، هي التي، ويمكن ان تفضي لك هي بهذه

الرغبة، وبصوتها اذا اردت..؟

المطلق : زوجتي فلانة؟

الحلال : نعم، مطلقتك فلانة، زوجتي الآن، أي نعم، والله إنها ارادتها هي. أتريد ان تتقدم إليك هي بهذا الالتماس.. وتعرب لك بصوتها عن هذه الرغبة..؟ وتتوسل إليك هي أن لا تبخل علينا خلال هذه الأيام الثلاثة الإظافية بالكباب. اللحم الطري. و«الفتي». ولك منا هي وأنا. جزيل الشكر وعظيم الامتنان، الظاهر أنك لا تصدق ما أقول لك.؟

المطلق : نعم لا أصدق، لا أصدق.

الحلال : طيب، استمع «ثم ينادي» فلانة فلانة

الزوجة : «صوتها» نعم يا سيدي فلان

المطلق : «مستغربا» نعم يا سيدي فلان..؟

الحلال : إنه يشك في أنني أكذب عليه، وأنا أنقل إليه بكل أمانة رغبتك في مهلة ثلاثة أيام أخرى. قبل أن يتم الطلاق، مع التماسك منه أن يستمر في النفقة علينا مشكوراً. وألححت عليه - باسمك - أن لا ينسى القطبان.

المطلق : القطبان ..؟!

الحلال : السفافيد

المطلق : السفافيد..؟!

الحلال : سفافيد الكباب «ثم ينادي» فلانة، فلانة

الزوجة : نعم سيدي

المطلق : فلانة أمراتي تقول لهذا المخلوق الكريه : نعم سيدي،

يا ويحي ماذا أسمع..؟ وماذا أرى..؟

الحلال : قلت لك : أنك تسمع الحقيقة الناصعة. وترى الواقع المر المرير. والذي لاغبار عليه. وحتى تطمئن وتهدأ أكثر، اسمع «ينادي» فلانة فلانة.

الزوجة : نعم يا سيدي فلان

الحلال : «للزوج» هذا صوتها...؟ وأنت اعرف الناس به. أليس هذا صوتها..؟

المطلق : بلى، انه صوتها

الحلال : طيب.. افتح ادنيك واستمع جيدا. فلانة، قولي له ماذا تريدين بصوتك..

الزوجة : «صوتها» فلان.. فلان

المطلق : نعم.

الزوجة : أتسمعني

المطلق : جيدا، جيدا

الزوجة : مادام هذا الزواج حلال، وقد تم على سنة الله ورسوله، وبشهادة عدلين. فإني أطلب منك أن تمهلنا ثلاثة أيام أخرى.

المطلق : «متوترا في عصبية» ثلاثة أيام أخرى..؟

الزوجة : ثلاث أيام لا غير. ثلاثة أيام فقط.. هذا كله ما في الأمر

المطلق : وبعد انصرام الثلاثة أيام..؟

الزوجة : قد يطلقني زوجي سيدي فلان، كما طلقتني أنت.

المطلق : ولكن أتعرفين وضعه المادي..؟!

الزوجة : أعرف، طبعا.

المطلق : وتعرفين أنه رجل بلا عمل، عاطل، وبلا طموح، وأنه لا يستطيع الانفاق عليك ولو ليوم واحد، فماأحراك بثلاثة أيام..؟

الزوجة : أعرف ذلك حق المعرفة ولكننا نعتمد على كرمك، نأمل أن تواصل الانفاق عليك، ورعايتنا بجودك وكرمك.

المطلق : وبعد انصرام الثلاثة أيام؟

الزوجة : هذا سؤال دقيق، «للحلال» اجبه انت ياسيدي فلان، أفضل أن تجيبه أنت

الحلال : سأطلق، نعم، سأطلق.

المطلق : ومن غير ان تطلب مني لا انت ولا هي أية مهلة اضافية أخرى.

الحلال : ومن غير أن يكون لي أي مطمع في المزيد من هذا النعيم الذي أغدقته علينا من خيرك الجم.

المطلق : لا انت ولا هي

الحلال : لا أنا ولا هي. «للزوجة» فلانة أكدي له أنت هذا القول

الزوجة : أناأأمن على كل ما قاله لك زوجي، والتزم به.

المطلق : ولماذا تحاورينني من وراء الحجاب..؟ اظهري أمامي لنتحدث وجها لوجه.

الحلال : لانها الآن في عصمتي. ومادامت في عصمتي - حتى مؤقتا - لا أسمح لك برؤيتها. انها على كل حال زوجتي.. ولا اسمح لأي كان برؤيتها.. حرام. حرام. وهذا ما اعتقد على قدر ما أفهم، انها زوجتي

المطلق : زوجتك؟

الحلال : نعم، أو ليس كذلك..؟

المطلق : هو كذلك، ولكن في عقد صوري، ويجب أن لا تنسى أنك محلل فقط، مجرد «تياس» أتعرف ذلك نعم أم لا...؟

الحلال : نعم اعرف ذلك

المطلق : وتعرف أيضا أنك في وضعك الحالي لا تعدو أن تكون ممثلا يقوم بدور في تمثيلية..؟

الحلال : اعرف ذلك، وأعرف انني امثل دور الزوج فقط. حقيقة انا مجرد تياس ولكن أرجوك دعني اقوم بهذا الدور على احسن ما يرام حتى اذا ما طلقت زوجتي ومطلقتك ورجعت الأمور بينك وبينها الى سالف عهدها ورجع الماء الى مجراه، والعبد إلى مولاه. تبقى لديك ذكرى «جميلة» عن قيامي بدور الزوج الصوري «التياس» على أكمل وجه من وجوه الاتقان والاندماج أو ليس كذلك؟ حتى الزواج الصوري يجب أن يكون متقنا يا سيدي الكريم النبيل.

المطلق : وهو كذلك، ولكن يجب أن تتذكر دائما ان بيننا اتفاقا، ويجب عليك أن تفي بجميع بنوده وشروطه..؟! وكل ماعدا الوفاء بالالتزام فهو كلام زائد ونوع من التراجع ومحاولة التنصل والتملص.

الحلال : ابدا ابدا، ليست لدي نية لا في التراجع ولا في التملص. وحتى لو كانت لدي هذه النية السيئة، فانا كما لا يخفى عليك لا املك القدرة على التخلي عن

التزاماتي. التملص، والتراجع ليس في متناول كل الناس، فليست لدي امكانيات مادية، ولا معنوية، ولا املك من حطام هذه الدنيا الفانية اي شيء، وأنت تعرف قبل غيرك ان هذا الزواج الصوري كله من جميل صنعك وكريم فضلك ومصارفه كل مصارفه من جودك وسخائك، ومما افاء الله عليك. لا ياسيدي اطمئن، فحتى لو كنت ابيت لك النية في الاخلال بالوعد وعدم الوفاء ببنود الاتفاق الملزمة، فأنا رجل مفلس معدم ومعنى ذلك أنني لا املك القدرة على التملص، أو التنكر لوغودي، ثم انني رجل وفي بطبعي وبطبيعة ظروفي الملزمة فانا مكره على الالتزام بجميع بنود الاتفاق. كن على يقين !

المطلق : وماذا تطلب ؟

الحلال : انا لا اطلب شيئا، وانما مطلقتك أقصد زوجتي هي التي تطلب وترغب.

المطلق : تطلب ماذا. ترغب في ماذا ؟

الحلال : تكلمي انت، قولي له فيم ترغبين !

الزوجة : في ثلاثة أيام اضافية، فلان استمع الي: ثلاثة ايام فقط ولا احب ان اقول كلامي واعيده، واكرره، طلبي بسيط، وواضح، انا الان متزوجة ومتزوجة في الحلال من هذا السيد الذي اخترته انت، فتكرم علينا بثلاثة أيام اضافية «وفاية» كما يقول زوجي سيدي فلان.

المطلق : زوجك، سيدي فلان، تقولين لهذا المخلوق سيدي.

الزوجة : اما قلت لي أنت نفسك انه شريف؟ وانه اهل

للتجلة والاحترام.

المطلق : وهل هو فعلا كذلك؟ اجيبيني أهو كذلك؟

الزوجة : انه فعلا كذلك ويستحق الاحترام، كل الاحترام، لو كنا نحترم الناس لانفسهم، وذواتهم. انه اهل للاكبار وللاجلال، انه رجل «مستقيم» وعلى ضعفه المادي فهو يتمتع بقوة معنوية مدهشة.

المطلق : كيف؟

الزوجة : هذا اذا كنت تود ان تسمع الحقيقة، اما اذا كنت تريدني ان اكذب عليك فهو رجل خامل لا يصلح لصالحة.

المطلق : هو اذن في نظرك كفؤ من الناحية المعنوية؟

الزوجة : ويعرف كيف يتعامل مع المرأة، وكيف يكون رقيق العبارة شيق الحديث مهذبا مؤدبا في حضرتها وكيف يشعرها بلطف انها انسان جدير بالاحترام، خليق بالحب والتقدير، انسان يستحق ان تحفظ كرامته، وتراعى مشاعره، الصراحة ان مزايا هذا «التياس» لا تعد ولا تحصى واني اهنئك على حسن اختيارك لقد اخترت، واحسنت الاختيار، واذا كان جيبه فارغا من النقود، فرصيده من الكلمات الطيبات الجميلة معين لا ينضب، ثم ان له طريقة في الالقاء آسرة أخاذة كما له قدرة خارقة على اشباع اذن المرأة السميعة المصيخة. ولاشك انك تعرف ان المغاربة يقولون : ان المرأة تسمن من اذنيها، وذلك اعتباراً لأنها تحسن فن الاصغاء. ثم ان الكلام الحلو

الجميل يبعث في نفسها الثقة والطمأنينة، ويوفر لها الهدوء، وراحة البال. ومتى توفرت كل هذه العوامل للمرأة، أي امرأة، لابد ان تصح، وتسمن. للكلمات الجميلة في أذن المرأة وقع خاص، واعتبار خاص، انه غذاء معنوي حيوي، روحي وجداني، وله فعل السحر على حالتها الذاتية، والفكرية والصحية، ثم ان هذا التياس لا يحسن فنون القول فقط، بل يجيد وبحذق فن الاصغاء، وإصاخة السمع ولا يضجر أو يتبرم حتى من سماع الثرثرات النسائية الفارغة، وهذه كفاءة لا تتمتع بها الا قلة قليلة من الرجال النبهاء، والعقلاء، الحكماء، استمع الي جيدا يافلان ! سأقول لك كلمة صريحة بخصوصك، فأنا منذ ان عرفتك لم ارك توفق في أي عمل بالقدر الذي توفقت فيه وأنت تختار لي هذا «التياس». الحقيقة أن مناقبه لا تعد ولا تحصى، بالاضافة الى الرجولة، والفحولة - لاحياء في الدين - وعلى كل حال، ماذا اقول، شكرا لك ألف شكر، فكن كريما وزدني، زدنا ثلاثة أيام «وفاية»

وانصرمت الايام الثلاثة وبدأ ذلك التياس الذي كان خاملا كسولا لا يتحرك، ولا يبحث عن عمل بدأ ويا للعجب يشتغل، وتعلم في ظرف وجيز كيف يبحث عن خبزه بعرق جبينه، وبكده وجهده، ثم انه عندما بدأ يشتغل فتحت امامه أبواب الرزق على مصراعيها، فعزا ذلك لبركة زوجته «ذات

اقدام الربح » كما يقولون، وبسرعة خارقة تبدلت احواله، الشيء الذي جعله يستغني عن عون ونفقة السيد الحاج المطلق الباحث عن الحلال أو التياس.

وبعد مدة ليست بالقصيرة من المماطلات والتسويف، والوعود واخلاف الوعود، والسيد الحاج فلان المطلق النادم يعاني الامرين، وصاحبنا التياس يمنيه باليوم والغد ويعذبه بنوع من (سادية) تبدو ساذجة عفوية تلقائية، وفذلكات وحيل ومخاتلات، وابتزازات بوحي من المطلقة نفسها، جاء عنده ذات يوم، وزف اليه بشرى سعيدة ، ولكنها في الوقت ذاته مؤلمة قاسية قاتلة.

الحلال : سيدي الكريم، النبيل، الاصيل، ان السيدة فلانة مطلقتك، زوجتي حامل، اي والله حامل، لماذا تنظر الي هكذا.؟ وكأنك تشك في صحة كلامي؟ صدقني صدقني انها حامل، وايم الله حامل.

المطلق : وجئت بهذه المناسبة السعيدة تطلب مني المزيد من الدراهم..؟!

الحلال : لا ابدا جئت فقط لاخبرك واطلب منك.

المطلق : ماذا؟

الحلال : دعاء الخير فقط. لقد بدأت أشتغل وفتح الله علي. زوجتي مبروكة صدقني ياسيدي. انني الآن اشتغل، ولن أعود لاطلب منك أي عون أو مساعدة، اطلب منك فقط الدعاء بالتوفيق في عملي. قالت لي زوجتي مطلقتك فلانة : اذا كنت تحبني حقيقة جرب ان تعمل،

واضافت لا أطلب منك إلا أن تجرب، وفعلا جربت.

المطلق : جربت ماذا ؟

الحلال : جربت العمل، الشغل، الحركة، محاولة كسب القوت بعرق الجبين، سيدي الكريم النبيل، الاصيل، اخشى ان تسخر مني اذا قلت لك، اذا قلت لك، لا. لا أهمية لذلك. ولن اقول لك شيئا.

المطلق : ماذا تريد ان تقول؟ والله والله لن اعطيك درهما واحدا بعد الآن.

الحلال : وانا لن اطلب منك درهما واحدا من اليوم فصاعدا، اما سمعتني يا سيدي قلت لك انني بدأت أشتغل، بدأت اتحرك، وفي الحركة بركة كما يقولون وفي قولهم هذا حقيقة لا يتناطح في وجاهتها كبشان. كنت اود ان اقول لك.. لا. لا ماذا اقول؟ لعلي بدأت أخرف، ومع ذلك فقد كنت اود ان ازف لك خبرا آخرا يثلج الصدر، ولكني وجدت نفسي محرجا بعض الشيء، لقد بدأت احبها، انها امرأة خارقة للعادة، سيدة فاضلة بكل معنى الكلمة، فاضلة طيبة، كريمة، متخلقة، وعاقلة ثم إنها مدبرة حكيمة وأكثر من كل ذلك مبروكة والله انها مبروكة واشعرانها قد تكون هي الاخرى بدأت تعشقني.

المطلق : تعشقك، انت ؟ انت؟

الحلال : نعم. نعم ! بدأت تحبني. بهذا ينبئني قلبي. وقلبي لا يكذب. واعتقد انني لا اقدر على فراقها، او مجرد التفكير في طلاقها، والزهد فيها. لا، لا ابدا، ان من

يجد امرأة في مستوى مطلقتك السيدة زوجتي ويطلقها احمق، اخرق، بل اعوج، اهوج، واصارحك أنني استغرب كيف لرجل في مثل نباهتك، وذكائك، وفطنتك ان يقدم على تطليق امرأة بالمواصفات التي تتمتع بها زوجتي، إنها جنة الدنيا، إنها الفضل والفضيلة، إنها مجموعة من المحاسن النادرة، والمكارم المفقودة. لم ار لها مثيلا ولا شبيها في حياتي لذلك ياسيدي بدأت أعشقها، وأهيم بها حبا جما، وأشعر انني في بحر هواها، اغرق، اغرق واغرق لدرجة تجعلني أتنفس تحت الماء.

ويمضي بطلنا «التياس» في حديثه عن الزوجة الخارقة للعادة. وهو يعدد محاسنها، ويطري مناقبها، متدفقا مسهبا مطنبا. وكأنه – ومن غير ان يشعر او يقصد – يوجه الطعنات للسيد الحاج المطلق النادم المتحسر ثم يختم كلامه قائلا :

الحلال : اخبرتني فلانة انها لم تنجب منك لا «فطوش ولا فطوشة» وبناء على هذا، واعتباراً لكل ماأسلفت، انهي الى شريف علمك انني لن اطلقها ابدا. أيجوز ان اطلقها وانا غارق في هواها؟ احبها ياسيدي احبها ! واكيد انها هي ايضا تحبني، ويحب ناقتها بعيري، ثم هي، الآن حامل، هي حامل، وأنا اشتغل، واكسب، سيدي لقد بدأت انام قرير العين، ودعت الارق، والقلق، والتوتر، والشرود، ولقد سميتها :

اطمئنان. انها من الان فصاعدا، السيدة اطمئنان.

هذه الصورة والتي اخترت ان اقدمها بهذه الطريقة. التي تشبه الى حد بعيد الطريقة التي تروى بها. وهي صورة من صميم واقع حياتنا، في الماضي القريب والماضي البعيد. ولعل ما يماثلها ما يزال يواكب حياتنا الى يومنا هذا، انها صـــورة تتكرر، وتنسخ في كل زمن، وفي كل مكان. تقع باحداث مختلفة، ولأناس كثيرين من كل الفئات، ومن جميع الحيثيات والمشارب الشيء الذي يذكرنا بالدور الصوري للزوج الحلال «التياس» وان اختلفت اساليب المعاملة معه. او التعاقد ان شئنا الدقة.

الا ان هناك من كان ولعله مازال يتهيب. او يتشاءم من الحلال او لا يثق في صدق تعهده، او امانته، ويخشى ان يقع تحت طائلة التملص، وعدم الوفاء بالالتزام، الشيء الذي جعل بعض الذين يسقطون في مغبة «طلاق الندم» طلاق الانفعال والتسرع، والتهور الذي ينتهي الى ندم لا نفع من إبدائه. ندم شاق مضني.

الا أن الذين يتهيبون من اللجوء الى التياس. او الحلال، خشية التنكر والتملص، او التمسك بزوجة الحلال، كما قد تكون الزوجة هي المتمسكة بالتياس وقد وجدت فيه ما لم تجده في الزوج المطلق وتكون هي الرافضة للعودة الى زوجها السابق مهما اختلفت اوضاع الزوجين، ومهما تباينت حيثياتهما من الناحية المادية والاجتماعية حتى ان منهن من

كانت تقول : الخبز الحافي مع الهدوء، والسكينة، وراحة البال، افضل عندي من كل مظاهر الابهة، والرفاهية مع الضجيج والعجيج والشنآن الذي لا ينتهي أبدا، ويا ما اكثر المطلقات اللواتي تمسكن بالحلال وحولن حياته فتبدل كسله بالعمل، وعسره باليسر، وكل سلبياته بالايجابيات.

السفيه

وإذا رجعنا إلى الذين كانوا يتهيبون من «طلاق اللا عودة» أولئك الذين كانوا شديدي الغيرة على زوجاتهم. ولا يقبلون بفكرة هذا الزواج الصوري الذي يقوم بدور البطولة فيه الحلال، أو التياس. هؤلاء المتشبثون بنسائهم حتى في حالة وقوعهم تحت طائلة الحنث الموجب «لطلاق الثلاث» كانوا يلجأون الى فتوى : «الظهور أمام الناس بمظهر السفهاء». والسفيه طبعا هو من يأتي اعمالا مخدشة، مخلة بالذوق. والعرف. والشريعة. وتبعث على النفور، والتقزز، والشك في سلامة العقل، ومن يرتكب تصرفات الحمقى المختلين الفاقدين للانضباط والتوازن. فهو في نظر جميع الناس : أحمق وسفيه وغير متوازن ومختل. وهو بهذه الصفات مريض أو في حكم المريض. و«ليس على الأعمى حرج ولا على الاعرج حرج، ولا على المريض حرج» وهكذا يتحرر الواقع في الحنث أو في مشكلة الطلاق للمرة الثالثة من الوقوع تحت طائلة الالتزام بتطبيق حكم وجوب زواج مطلقته من رجل آخر ويطلقها بدوره ليكون في وسعه أن

يتزوجها من جديد.

والفتوى الحل أو الحيلة كما يسميها الأعوام ويعقبون عليها: «لا حيلة مع الله» هي أن يكون الواقع في المأزق سفيها. وحتى يثبت أمام الناس أنه فعلا مختل بل سفيه. كان يتحتم عليه أن يقوم بأعمال السفهاء. وتفصيل ذلك أنه كان يأتي إلى باب جامع القرويين القريبة من سوق الشماعين وفي الوقت الذي تمتلىء فيه الجامع بالمصلين والعلماء المحدثين، والطلبة وينزع ملابسه كلها ويندفع أمام الناس وهو على تلك الحالة الشاذة المزرية. ويذرع المسجد عَارٍ. كما ولدته أمه، ثم يخرج من أحد الأبواب الواقعة في «بو طويل» وبهذا التصرف غير اللائق الشنيع يكتسب صاحبنا لقب «سفيه» وبشهادة عدلين. وبما أن السفيه لا تطبق في حقه وتبعا لسلوكه الأحكام الشرعية باعتباره أحمقا مريضا «وليس على المريض حرج» فان المطلق بهذه الحيلة الشيطانية ولا أقول الفتوى كان يتحرر في الواقع من اشكالية «طلاق الثلاث» ومن تطبيق الأحكام الشرعية ولكن شتان ما بين السفيه السفيه. والمتسفه لغاية في نفس يعقوب. وليس الاحمق كالمتحامق طبعا.

إلا أن الذي كان يلجأ إلى هذا التصرف أو ما يماثله من تصرفات السفهاء. كان يدفع ثمن هذا التصرف المشين غاليا فاحش الغلاء ذلك أنه يصبح منعوتا في جميع الأوساط بالسفيه. وليس اللقب هو المشكل وإنما وضعه في المجتمع.

فالسفيه منبوذ، ولا يتعامل معه أحد ولا يرافقه أو يحاذيه، ولا يقترب منه أحد، ولا تقبل كلمته في المعاملات التجارية الا بالضامن - اذا وجد من يجرؤ على ضمانته - . ولا تقبل شهادته لدى القاضي، أو عند العدول ويتحاشى الناس كل الناس المعاملة معه باطلاق، باعتباره سفيها منبوذاً مُقْصَى وَمُبْعَدْ. لدرجة أن هناك من لا يتحرج في مناداته جهارا بالسفيه. ومن الناس من كان يقاطعه الى الأبد. لا يقرئه السلام. وإذا سلم هو لا يرده عليه. واذا سئل عنه، أو ذكر اسمه في حضرته استعاذ بالله من الشيطان الرجيم.

وجل العلماء كانوا يستنكرون هذه الفتوى ويعتبرونها تحايلا مجرد تحايل للتملص من الرضوخ لشريعة الله، وسنة رسوله ومن السفهاء من كان يلجأ لوسائل أخرى، وطرق أخرى لاظهار معالم سفاهته وتفاهته وحمقه. والصور التي استمعت إليها كثيرة ومتنوعة. الا أنني فضلت أن أسوق هنا هذه الصورة باعتبارها الأقل سوءا والأقل بعثا على التقزز والنفور والاشمئزاز

الجود يتأثر بالجود

مما يحكى عن العالم الفقيه الفيلسوف ابن رشد انه خلال المدة التي عاشها بمراكش كان يتردد على احد اصدقائه من تجار قسارية الحاج عبد السلام الورزازي الموجودة بالسمارين. كانت تحلو للعالم مجالسته، وتبادل الحديث معه،

لظرفه، ولطفه وحضور بداهته، وسرعة خاطره. وذات يوم أقبل عليه في الصباح الباكر، وكان ذلك الصديق التاجر يعمل دائما بالحديث الشريف : «من بدأ يومه بصدقة وقاه الله شر ذلك اليوم» أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

وما كاد الفقيه يجلس في المكان المخصص له في دكان صديقه التاجر حتى اقبل متسول : متاع الله متاع الله. فأعطاه التاجر ما جادت به يده. ثم أقبل متسول ثان وثالث ورابع والتاجر يعطي متاع الله لكل طالب لمتاع الله، ولدى وصول المتسول الخامس تردد وتلكأ في العطاء، فقال له الفقيه آمرا : اعطه نصيبه من متاع الله، فما كان من التاجر الا ان واصل العطاء، وتكرر طلب المتسولين، وتكرر تردد التاجر، وتكرر أمر الفقيه بالعطاء. وتكرر أيضا الصدع بامر الفقيه والامتثال له، الى أن أتى التاجر على كل ما كان لديه. ولدى مغادرة ابن رشد لدكان صديقه همس في اذنه : سأعود في العشي لنراجع الحساب معا فلا تكن من القانطين. وفي عشية ذلك اليوم نفسه رجع الفقيه إلى صديقه التاجر وسأله:

- كيف كانت الحركة اليوم؟ كيف مر هذا اليوم؟
- كانت الحركة مباركة، ومر اليوم بسلام.
- وكيف كانت المداخيل؟ أهي أحسن من مداخيل الامس؟ اجبني ! نعم ام لا؟
- نعم، وأحسن بكثير. فقال ابن رشد معقبا : أرأيت، الجود يتأثر بالجود. ذكرني بهذه الحكاية الصديق أحمد زويتن. وكنت قابلته صدفة بفاس. وارجعني الى ايام اقامتي

بمراكش وأذكى في نفسي حنين طفولتي حيث لم يكن يمر يوم دون ان استمع الى من يروي هذه الحكاية بطريقته الخاصة، واسلوبه الخاص، ومع اختلاف الصيغ، واساليب الحكاية. يبقى الجوهر هو هو، فقد كان هناك من يقول : قال الفقيه ابن رشد لصديقه : الكريم يجلب الكرم، وفي رواية أخرى : اكرم من في الارض يكرمك من في السماء. ومنهم من كان يرجع تكريم الله سبحانه وتعالى الى قوله في محكم تنزيله : «ان الله لا يضيع اجر من احسن عملا».

ومن عامة الناس من كان لا يعرف من هو ابن رشد، ولكنه يتحدث عنه بصفته فقيها. فيقول عنه مثلا : كان احد العلماء، الفقهاء، الكبار، الاعلام، يحث الناس بمدينة مراكش، على الاكثار من الصدقة، ويوصي بالسخاء في العطاء والبذل ويقول للناس : «على قدر الصدقة يكون أجر الله».

ويقول : «الاجر على قدر البذل، والمنفعة على قدر العطاء» والاحسان كالحرث، واسوة به تماما من يحرث مدا يجني حصاد مردود مد. ومن يحرث عشرة امداد يحصد جني عشرة امداد،وعلى قدر ما يكون العطاء سخيا، تكون المكافاءات كبيرة وباذخة.

العباسية

عندما كنا اطفالا صغارا كانت تستهوينا وتأحذ بألْبابنا «حلوة العبادي» الذي كان يتجول في أزقة مدينة فاس وهو

ينادي على حلوته : «جبان كول وبان» او يقول : «اولادي يا ولادي. هذي حلوة العبادي» وكان يمسك بقصبة خيزران، ويلف حولها حلوته البيضاء الناصعة، والتي كان يزينها بحبات السانوج. وكانت هذه الحلوة تسمى أيضا «جبان بالسانوج». ومن الناس الكبار الظرفاء اصحاب الشقشقة والتعاليق. وإطلاق العنان للسان من كان يستعمل : «الحلوة بالسانوج» كناية لوصف ساق المرأة الناصع البياض وقد رصعه شعر اسود فاحم، اذا مرت أمامه وهي لا ترتدي جوارب، همس في أذن صاحبه وهو «يبحصص» في ساقها. انظر، انظر، اليست هذي هي «الحلوة بالسانوج»؟ ارجوك تأمل.

وأعود للعبادي صاحب الحلوة مع اطفاله، وهم زبناؤه في الغالب فقد كان هناك من الاطفال من باستطاعته ان يشتري الحلوة، كما كان منهم من لا يستطيع، فاما الذي يشتري فيطبق عليه العبادي مقولة مشهورة، مسلم بوجاهتها وهي: «اعطيه يعطيك» اي على قدر ما تصرفه للعبادي من الدراهم يعطيك من الحلوة. والعبادي عينه ميزانه. واما بالنسبة للاطفال الذين لا يستطيعون الشراء، فهم لا يملكون الا ان يطلبوا من العبادي : «العباسية» فيعطي لكل طالب «شظية» بالمجان. وتلك «الشظايا» المجانية هي العباسية. وطلبها مباح من الطفل الذي يشتري، والذي لا يشتري. ولا يملك العبادي الا ان يستجيب لطلب العباسية من أي مصدر أتى.

ولكن ماهو الأصل في هذه العباسية؟ ومن سنها.. ؟

وكيف كان ميلادها؟

من العادات الجميلة الرائعة، والتي اتسمت بالتبرعات الخيرة الانسانية والتي لم يعد لها ذكر، او يكاد، ولم يعد يعرفها احد، خصوصا من اطفالنا وشبابنا، وحتى بعض كهولنا عادة : العباسية.

والعباسية حسب ما تقول الرواية الشعبية الشفوية. وهي المرجع الوحيد الذي اعتمدته في هذه الحكاية التي تقول : عندما كان العالم الجليل الفقيه الولي الصالح سيدي بلعباس السبتي يشتغل بالحسبة في مدينة مراكش لاحظ تفشي ظاهرة الشحاذة وتكاثر المتسولين، والمتسكعين من المحتاجين، وحتى من غير المحتاجين. فاصدر امره لكافة المشتغلين بتحضير المواد الاستهلاكية الغذائية بان يجعلوا اول انتاجاتهم - باكورة الانتاج - صدقة. وقال لهم في اقتراح يشبه الامر : لو تصدق الخباز بالطرحة الاولى، والسفاج بالقلية الاولى، والحساء بالطنجرة الاولى، وكل من يشتغل بالمواد الاستهلاكية الاولية، لو تصدق بدفعتها الاولى لخفت حدة التسول والشحاذة. فلماذا لا نجرب تطبيق هذه العملية؟

ومنذ أن بدأ الناس يطبقون هذا الامر الذي جاء على شكل اقتراح خفت وطأة التسكع، والتسول، وشع في المدينة نوع من التعاضد والتكافل والتآزر. وسادت فضيلة التعاون بين الناس، وتحقق نوع من التشارك والتكافل، وتقبل الناس هذه المبادرة بالتأييد العملي، والمساهمة الفعلية من

اكبر كبير، الى اصغر صغير. حتى ان بائعات الخبز، وهن فقيرات، لا يكاد راسمال الواحدة منهن يتجاوز العشرين خبزة، فقد كانت كل واحدة منهن تتصدق بخبزة، «خبزة سيدي بالعباس» ، ولا تشرع في البيع الا بعد ان تشق الخبزة على اربعة وتقول : هذه خبزة «العباسية».

وامتدت هذه العادة حتى شملت العديد من مرافق الحياة، وصار كل من يجهز اي بضاعة للبيع، يتصدق بباكورة انتاجه. وأصبح لابد لكل شيء من : العباسية.

واذكر في هذا الصدد وانا طفل صغير بمدينة فاس ان السفاج ـ على سبيل المثال ـ كان يفتتح العمل بتحضير مقلاة كاملة من الاسفنج الصغير، ويتصدق بها قبل البدء في البيع، وخلال فترة عمله، كان اطفال الكتاب – المسيد – لايتحرجون في طلب نصيبهم من «العباسية» وحتى ابناء الميسورين والاعيان، والوجهاء. ولم يكن السفاج يبخل او يتلكأ، بالرغم من ان الطلبات تاتي في غالبيتها الساحقة من ابناء غير المحتاجين. وكذلك كان يفعل «الحلوي» مع الاطفال فهم رواده، وزبناؤه. ولكن العباسية. اولا، وانتقلت هذه السنة من المدن الى البادية. فلدى جمع الحصيدة كانت تبتدىء بأمداد سيدي بلعباس، فلا بيع ولا شراء، ولا توزع بين المالك و«الرباع»، او «الخماس» الا بعد سحب : «حق سيدي بلعباس» العباسية وقد استعملت هذه العبارة «العباسية» في بعض الاحيان حتى كاضافة. علاوة. زيادة او

كما يقول العامة : «وفاية». فقد يحدث ان يشتري الواحد منا خمسة قطع من بضاعة ما. فيعطيه التاجر البائع سادسة قائلا : وهذي القطعة السادسة عباسية» اي زيادة «وفاية» وقد يطالب بها المشتري على هذا النحو : هذي بضاعة اشريتها بدراهمي. فاين العباسية ؟ وتعممت حسنة العباسية وانتشرت، حتى شملت اشياء كثيرة، وكثيرة جدا. وشاعت حتى وصلت للمداشر والقرى واصبحت القاعدة المثلى. واصبح التخلي عنها او نسيانها هو الاستثناء. وحتى حفلات الاعراس، او المناسبات المشابهة، كانت تسبقها ولائم تقام لاطعام الفقراء. ومنهم من كان يسميها : الصدقة، ومنهم من كان يقول عنها : انها حفلة سيدي بالعباس «العباسية».

وبرغم النسيان والتجاوز والتطور الذي اتى على بعض العادات وادخلها في خانة : كان في قديم الزمان، مازلت تجد في بعض الاحياء الشعبية بالمدن العتيقة من اذا اشتريت منه اعطاك العباسية واذا بعت له شيئا طالبك بها.

«الزلط النواس»

الزلط في العامية المغربية هو الفقر. وان شئت الدقة هو الفقر المدقع و«النواس» هو المؤنس والمؤانسة هنا هي : حلم الكسالى او أحلام اليقظة، وفي مضمار الحث على العمل، وتمجيد العمل، واظهار مزايا وفوائد العمل ونبذ الكسل والتواكل والاتكال، وانتظار (گودو)، انتظار الذي تأتي ولا

يأتي وما ينتج عن ذلك من «استئناس» بالتخاذل والبخل ببذل الجهد والحركة والعمل على تغيير الواقع المخذل المحبط.

للعمل على تلافي كل ذلك، كان المغاربة يصرون على رواية حكاية قصة «الزلط النواس» لأبنائهم وللأطفال عموما، حتى يكونوا على بينة من أمر مغبة «أحلام اليقظة» وتروي حكاية «الزلط النواس» على هذا النحو: كان جحا كسولا، خاملا، يحب السكون، والخلود الى الراحة، ويكره الحركة والعمل، أي عمل، وكانت والدته تقول له دائما: عليك بالعمل ياجحا. فالعمل عبادة يا ولدي. ان اضرابك عن العمل يحز في قلبي يجب ان تتحرك قبل ان تكبر على اكتافك «العجوزة» والذي تركب على أكتافه العجوزة في العرف الشعبي المغربي هو ذلك الشخص الذي استمرأ الكسل، وألف الراحة ونبذ فكرة العمل. واصبح لا يشغل ذهنه الا بأكل القوت، وانتظار الموت، ولكن جحا الذي لم يكن يتحرك كان يحلم طبعا، كان في ما بينه وبين نفسه غير راض عن وضعيته المادية والمعنوية وكان يعي أنه يعيش عالة على كد وجهد الآخرين ولذلك كان يتمنى - وفي حدود التمني - ان يغير احواله أو أن تتغير أحواله - بغير جهد - من تلقاء نفسها بمعجزة ما.

وذات يوم وهو يسير الهوينا في زقاق قريب من منزله واذا به يعثر على «فولة» فالتقطها واخذ يتأملها ويفكر. وفجأة قال يحاور نفسه: يا أنت يا جحا، يا أنا ياجحا لو زرعت هذه الفولة - بذرة - وكانت السنة الفلاحية على أحسن ما يرام ويؤمل، ستعطيني بأقل تقدير، وفي اسوأ الحالات

عشرين فولة، والعشرون فولة لو اعدت زرعها ستعطيني كل واحدة عشرين، والعشرون مضروبة في عشرين هي اربعمائة. واذا اعدت زرع هذه الأربعمائة، ستعطيني ثمانية آلاف والثمانية آلاف اذا ضربت فى عشرين أعطتني مائة وستين ألفا، والمائة وستون ألف اذا ضربت فى عشرين اعطتني اثنين وثلاثين مليون فولة، ولما تراكمت الارقام المدهشة في مخيلة جحا. بدأ يحول الاعداد الى الميزان فاذهلته القناطير المقنطرة من محصول الفول وبدأ يتساءل : واين سأخزن هذا الفول كله؟ اين سأجمعه وألم شتاته؟ فأول ما سأكون في حاجة ماسة إليه هو الأكياس، والأكياس العديدة المتعددة فمن لي بها؟ ثم سأكون في حاجة الى خزين بل الى خزائن ورجال مساعدين واعوان فهذه الكميات الهائلة والوافرة من محصول الفول تحتاج لعمال كثيرين ومحتسبين ماهرين من نزهاء اناس الحسبة وحراس امناء، فما العمل؟ وكيف اتصرف؟ واين اتجه الوجهة الصحيحة؟ فكر ثم فكر ودبر وأخيرا قرر وقال: ليس امامي الاباب واحد هو الذي سأطرقه وهو الذي سأجد عنده العون والمساعدة هو باب قصر السلطان وفعلا «تسلطنت» هذه الفكرة في دماغه ولم يجد للتخلص منها أي سبيل فلم يتردد أو يتوان لحظة والتمس توا طريق القصر وتقدم بطلب المثول بين يدي السلطان، ولما سئل عن الموضوع الذي يود الحديث بشأنه مع السلطان اكتفى بأنه يحمل اليه اخبارا هامة، ومفاجآت سارة ولدى مثوله امام السلطان قال بعد ان قدم فروض الطاعة والولاء : لدي يامولاي كمية وافرة من محصول الفول.

- كيف؟ لم أفهم.

- قلت يامولاي لدي كميات وافرة مذهلة من الفول.
- وبعد ..؟
- اريد أن اقدمها هدية لمولاي ومولاي يوزعها بعد له المعهود على كافة المواطنين وانا في حاجة الى عون ومساعدة؟
- وماهو نوع هذه المساعدة؟
- أول ما احتاج اليه في المرحلة الراهنة هو تحضير المخازن وتجهيزها.
- المخازن؟
- المخازن نعم! وباعداد لا تحصى، لان مالدي من القناطير المقنطرة من الفول كميات لا تحصى، شيء من وراء العقول.
- وكيف توفرت لديك هذه الكميات الوافرة؟
- الامر وما فيه يا مولاي ان مشروعي يبدأ من لاشيء وينتهي الى اشياء كثيرة وفي مقدمتها الازدهار الاقتصادي وما يعقبه من الخير العميم.
- مازلت في حاجة للمزيد من التوضيح.
- قد يدهشك يامولاي انني أعمل بالمثل الصيني الذي يقول: قطع المسافات الطويلة يبدأ بخطوة. وهذه المحصولات الوفيرة وهذه الكميات الكبيرة المذهلة من الفول ستبدأ بفولة واحدة، هذه الفولة يا سيدي، فكرت في زرعها، وقدرت أنها في اسوأ الحالات ستعطيني حصاد عشرين فولة والعشرون فولة اذا اعيد زرعها ستعطيني اربعمائة فولة واعادة غرسها سيعطيني ثمانية آلاف فولة والثمانية آلاف وهنا قاطعه السلطان وتابع:
- الثمانية آلاف ستعطيك مائة وستين ألفا والمائة وستون

ألفا ستعطيك اثنين وثلاثين مليونا وهكذا ستتصاعد الارقام واذا حولنا هذه الارقام ووضعناها في الميزان سنجد أمامنا ارقاما مذهلة من محصول الفول، القناطير المقنطرة «الاطنان المطننة» وهلم جرا. ولكن ياجحا الحلم غير العلم. وتحويل الاحلام الى حقائق من أشق وأصعب الاشياء وتحقيق المشاريع وتحويلها الى انجازات شيء جم الصعوبة لدرجة لا يمكن ان تتصور في غالب الاحيان. وفي خلال هذا التعقيب الذي كان يستمع اليه جحا وهو منفعل وقد ردته واقعية الحديث الى الفولة التي كانت تقشر بين اصابعه بلا شعور لتلقى في فمه بلا وعي، كما كانت الحقيقة التي ايقظته قد سلمته للذهول الى أن نبهه السلطان قائلا :

– ولنمض معك في هذا الحلم الجميل ولننطلق من قاعدة كل مشروع كبير، وعظيم بدأ بحلم، اليس كذلك؟ فانت الآن لا تملك الا فولة.

- اجل يا سيدي اجل،
- ارينيها !
- ماذا يا مولاي؟

قلت لك اعطيني هذه الفولة، لأرى إلى أي نوع من الفول تنتسب، وبحث جحا عن تلك الفولة ام الأرقام المذهلة والقناطير المقنطرة والاطنان المطننة في جيوبه فلم يعثر لها على أثر وفجأة تذكر انه أكلها وهو غارق في حلم يقظته.

وحلم اليقظة هو ما يسميه المغاربة : «الزلط النواس»

و«المزلوط المنوس» تعني : الفقير الكسول الخامل المضرب عن العمل والذي يستأنس بالاحلام والتمني وتصور الخيال حقيقة والمستحيل ممكنا واللا معقول معقولا ومعقولا جدا.

ان شـاء الله

الحديث عن مشيئة الله سبحانه وتعالى، حديث متشعب سجالي ويحتاج طرحه لتمكن علمي وفقهي كبيرين وهو موضوع واسع خصب وقد خصه كتاب : احياء علوم الدين لابي حامد الغزالي بقسط وافر من الدراسة والتحليل والتناول الفلسفي الفقهي الرائع. فالمشيئة الربانية هي التي جعلت موسى عليه السلام يشق البحر ويسير فوق الماء، وهي التي حولت عصاه الى أفعى، وهي القوة الخارقة القادرة على تحقيق المعجزات في تقدير المؤمنين، ويأتي الحسم في هذا الموضوع من كتاب الله عز وجل : «وماتشاءون الا ان يشاء الله و«لا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله» «واذكر ربك اذا نسيت» ولهذا فلا يحق للصائم في نظر الفقهاء ـ على سبيل المثال ـ ان يقول اني صائم الا بعد أذان المغرب، وتناول طعام الافطار. كما ان المؤمن لا يكتمل ايمانه الا بحسن الخاتمة وتتعدد تفسيرات العلماء، وتحليلات الفقهاء الفلاسفة للمشيئة الربانية وللقدرة الخارقة القادرة على كل شيء.

ولكن ليس هذا هو موضوع هذه الورقة، وانما موضوعها

هو موقع : «ان شاء الله» من حديث وكلام الناس اليومي.

ومن العادات الحميدة التي يتحلى بها حديث المغاربة مقولة : ان شاء الله. فالمغربي اذا اتفق معك على موعد للقاء وحدد لك الوقت قال لك : سأحضر ان شاء الله في الوقت المحدد. الا أن الكثير من الناس كان يعتبر الموعد المختوم بـ : ان شاء الله موعداً غير مضبوط، لان ان شاء الله كانت تمثل عند بعضهم «ولكا» ومعنى «الولكا» ان الموعد المضروب فيه بالتعبير الحديث : «ان» وان الحضور في الوقت المحدد مرهون بظروف المرغوب في حضوره ومرهون ايضا بمزاجه فهو قد التزم بالحضور في الوقت المحدد المضبوط، ولكنه أمهر التزامه بإن شاء الله بمعنى ان تيسرت الظروف واذا لم يحدث اي عائق أو بالاحرى اذا طاب للواعد ان يفي بوعده فهو ملتزم حسب مزاجه وحسب ما تقتضيه مصلحته. فانت مثلا اذا طالبت بدين لك على مديون ووعدك بالاداء في أجل ما. واعقب وعده بـ «ان شاء الله». فمعنى ذلك ان باب التسويف يبقى مفتوحا وانه ليس من المؤكد اطلاقا ان يأتي المديون في الاجل المحدد، ويؤدي لك ما بذمته، وبحكم هذا الاستعمال المبهم وغير الواضح لإن شاء الله وبحكم الالتباس الذي احاط بها، وبطرق استعمالها في الحديث اصبحت ان شاء الله عند بعض الناس تقوم مقام الرفض المؤدب او التسويف بطريقة مهذبة، او حتى طلب مهلة الى أجل غير مسمى «سير ياخانا. احنا وراك» «يموت اللي يموت، ويحى اللي يحـيى» والانتظار قائم. واذا طالبت بالوفاء، قيل لك: نحن مع مشيئة الله. وهذا

نوع من التملص استخدمت فيه ان شاء الله بمفهوم يغيّب الضبط والالتزام. ومع ذلك، فقد كان هناك من يستخدمها للتأكيد على الضبط والالتزام والاصرار على الوفاء : سأحضر في الوقت المحدد بمشيئة الله. وسأنجز ما وعدت به ان شاء الله. وان شاء الله. ولن اتأخر، أو اتملص ان شاء الله.

وتبقى الصيغ، وطريقة الالقاء، هما الاساس في تحديد المعاني المقصودة، ومدى الالتزام بالوفاء بها. وأخلص بعد هذا التمهيد الى حكاية جحا عندما قرر ان يشتري كبشا لوالدته بمناسبة عيد الاضحى. وهنا يجب ان اشير الى نقطة اخرى حول مقولة ان شاء الله. فقد كان بعض الناس، وما يزالون يلحون على من يعتزم او يتعهد بانجاز عمل ما، ان يقول : ان شاء الله، وذلك لان رد الامور الى ارادة الله ومشيئته يساعد على انجازها، وتحقيقها. والله لا يخيب من أرجع امره اليه. وان من يقول ان شاء الله تبارك إرادته ارادة الله.

واعود لحكاية جحا. وشرائه لكبش العيد لوالدته. وهو في طريقه الى السوق حيث يقابل صديقا له فيسأله.

الصديق : الى اين انت ذاهب يا جحا.؟

جحا : اني متجه الى السوق لاشتري خروفا لوالدتي بمناسبة العيد.

الصديق : ان شاء الله. قل ان شاء الله يا جحا.

جحا : ولماذا اقول ان شاء الله؟ الدراهم في جيبي والاكباش في السوق.

الصديق : ومع ذلك، قل ان شاء الله.

جحا : قلت لك ياصديقي. دراهمي في جيبي، والاكباش في السوق، فأي موجب لقول ان شاء الله؟

الصديق : لان تحقيق أي شيء مرهون بمشيئة الله.

جحا : لك انت ان تقول : اني قابلت جحا في الطريق، وقد اخبرني انه ذاهب الى السوق - ان شاء الله - لشراء كبش العيد لوالدته - ا ن شاء الله - لك انت ان تقول كل ما تريد، وكل ما يطيب لك، اما أنا، فذاهب الى السوق ودراهمي متيسرة موجودة ولا شيء يمنعني من شراء كبش من الاكباش الموجودة في السوق، أفهمت ؟

الصديق : ومع ذلك فانا الح عليك ان تقول انت أيضا ان شاء الله، مع وجود الاكباش في السوق قصد الشراء. فما ضرك لو قلت ا ن شا الله؟

جحا : سألتك بالله ان تنوب عني أنت في قولها، واصر جحا على عدم التلفظ بها اعتبارا للالتباس السالف الذكر من استعمال ان شاء الله، وتلافيا «للولكا» التي تضبب المواعيد وتجعل الالتزام مهزوزا وغير مضبوط.

وذهب جحا الى السوق، واشترى كبشا جميلا أقرنا، يسر الناظرين وأمسك به وقد صرف كل ما كان يملك مِنْ مال في شرائه. ولدى وصوله وهو خارج من السوق للباب. صادفه أحد اصدقائه وقد جاء بدوره لشراء كبش العيد فابدى اعجابه بكبش جحا الاقرن الجميل، واثنى عليه، ثم طلب من جحا ان

يساعده بخبرته في الحصول على كبش مماثل. فما كان من جحا الا ان قبل، وقفل راجعا مع صديقه إلى البائع الذي اشترى منه الكبش. ولكنه لم يجد عنده كبشا في المستوى، كبشا يشبه او يماثل كبش جحا الجميل. فطلب من البائع ان يبقي عنده كبش جحا على سبيل الامانة ليكون بوسعه ان يتفرغ للتجول في السوق بحثا عن كبش لصديقه. ومضى جحا وصاحبه يذرعان السوق طولا وعرضا، وهما يبحثان عن الكبش المماثل لكبش جحا. وبعد جهد جهيد عثرا عليه، فاشترياه.

وعاد جحا إلى البائع الذي ترك عنده الكبش على سبيل الامانة. وما ان امسك به وهم بالانصراف. حتى اوقفه البائع قائلا:

البائع : أيها السيد جحا. انك لم تسدد بعد ثمن الكبش.

جحا : ماذا تقول...؟!

البائع : قلت لك انك لم تدفع بعد ثمن الكبش

جحا : لعلك تمزح ياسيدي.؟

البائع : وهل نحن في مجال المزاح؟ أجبني يا سيدي الكريم جحا.

جحا : طبعا لا. ولكن صدقني لقد سددت لك الثمن بدليل انني أخذت الكبش وانصرفت. ولولا ان صديقا ارجعني من باب السوق لاشتري له كبشا لكنت الآن قد وصلت الى بيتي.

البائع : ومعنى ذلك.؟

جحا : معنى ذلك انني دفعت لك ثمن الكبش قبل ان انصرف.
صدقني. ارجوك صدقني

البائع : وأنا بدوري ارجوك، اتوسل اليك ان تصدقني، انك لم تسدد لي ثمن الكبش. فقد جمعت حساباتي وقارنت دراهمي بالاكباش المباعة. فالفيت ان جحا لم يدفع ثمن كبشه. ولهذا فانا لا اسمح لك بوضع يدك على هذا الكبش الا بعد ان تؤدي ثمنه؟ اسمعت؟ واتمنى ان لا تكرهني على ان استعمل القوة، او آمر احد مساعدي بأن يصرفك عني عنوة فليس أمامك إلا خياران : إما أن تدفع الثمن وتأخذ الكبش وتنصرف، وإما أن تحتفظ بدراهمك في جيبك وتنصرف. فوقتي لا يسمح لي بالشنآن.؟

جحا : ولكني دفعت لك الثمن. صرفت دراهمي كلها.

البائع : لمن؟

جحا : لك أنت، أنت بالذات.

البائع : الظاهر أنك مصر على اللغو. والممازحة وأنا صراحة. لاأحب هذا النوع من الممازحة خصوصا في أوقات العمل.

جحا : ياسيدي اتق الله، لقد دفعت لك ثمن الكبش، أخذته وانصرفت.

البائع : انصرفت قبل أن تدفع لي ثمن الكبش. استغفلتني. وارجعتك قدرة الله وخلوص نيتي.

جحا : اقسم لك بالله العلي العظيم انني دفعت لك الثمن. وهو كل ما كنت املك.

البائع : انا لا احلف. ولكنني على يقين بانك اما أن تكون مصراً على ممازحتي بهذه الطريقة التي ارفضها، وإما ان تكون لديك ارادة جحاوية للضحك علي واستغفالي. ويجب أن يكون واضحا لديك أنني أعرفك حق المعرفة.

جحا : وماذا تعرف عني.؟

البائع : اعرف انك جحا. مخاتل وتحب الحيل والألاعيب. ويسرك جدا الضحك على الاذقان لتقول وتباهي : أنا جحا فاس. فمن يضاهيني.؟ ومن ينازلني في الحيل والمخاتلات.؟ أهناك في هذه الدنيا من هوأحذق أو اذكى او اشطر مني.؟

جحا : والله. والله انني جاد فيما اقول. وصدقني ارجوك. لقد سددت لك ثمن الكبش.

البائع : جحا. جحا.

جحا : نعم.

البائع : ليس لدي وقت للضياع. ادفع ثمن الكبش وخذه وانصرف. ودعني اقوم بعملي ولا تلجئني لان اصرفك عني باسلوب لا يليق بمكانتك.

ولم تجد جحا كل وسائل الاقناع. ولم تنفعه أية حجة. فبائع الاكباش مقتنع ومصر على انه لم يتقاض ثمن الكبش.

وهكذا خرج جحا من السوق ـ وقد صرف كل مالديه من الدراهم ـ حائرا مهزوما مدحوراً، خالي الوفاض. وقد بارت

حيله. لا يعرف ماذا يعمل ولا كيف يتصرف.؟ وأخذ يخاطب نفسه : دخلت السوق وفي جيبي ثمن الكبش. وكنت أنوي ان لا اخرج منه الا وأنا اجر الكبش، واحمل بسمة عريضة الى والدتي. وها أنا اخرج من السوق وليس في جيبي درهم واحد. وليس معي كبش، ولا اسوق الا الخيبة والغفلة. والشماتة. والله انني رجل خائب، مغفل مشموت. فماذا علي ان افعل بعد الآن؟ وكيف اتصرف. فلابد ان اشتري كبشا لوالدتي - ان شاء الله - ولابد ان ارسم على محياها الجميل تلك البسمة الحلوة الرائعة بفرحة العيد. وكبش العيد - ان شاء الله - .لابد ان اتدبر امري، واشتري كبشا لوالدتي - ان شاء الله - ومن يومها دأب جحا على اقحام ان شاء الله في كل حديث بالمناسبة وبغير مناسبة.

وهناك رواية اخرى لهذه الحكاية تقول : سأل صديق جحا، وقد صادفه في الطريق.

الصديق : إلى أين يا جحا.؟

جحا : إلى السوق.

الصديق : وماذا لديك في السوق.؟

جحا : حائك، سأشتريه لوالدتي، اريد ان اسعدها وارسم على محياها بسمة مشرقة.

الصديق : وفقك الله.

جحا : شكرا.

الصديق : انت اذن في طريقك الى السوق لشراء حائك لوالدتك.

جحا : وهو كذلك

الصديق : اذن قل ان شاء الله.

جحا : ولماذا اقول ان شاء الله؟ «الفلوس في قبي، والحايك في السوق».

ولدى مرور جحا وهو في طريقه الى السوق بعين صافية يتدفق منها الماء العذب غمزته ونبهت عطشه وكما يقول المثل المغربي : «حرك الما، يبان العطشان» بحث جحا عن آنية يشرب بها فلم يجد. وحاول ان يشرب بكفي يديه فألفاهما وسختين لدرجة عز عليه معها ان يغسلهما في تلك العين الصافية المتدفقة فقال مخاطبا نفسه: ولماذا لا اشرب بفمي مباشرة. نعم انه الحل الأمثل. وانحنى على العين برأسه، وما كادت شفتاه تلامسان الماء حتى سقطت دراهمه من قبع جلبابه في الماء. فوقف مبهوتا مشدوها، وأخذ يتأمل دراهمه الغارقة المنجرفة مع التيار وهو لا يملك لاستردادها حولا ولا قوة. وقف أمام تلك العين ضائع الدراهم بائر الحيلة فاقد الامل مجرد الامل في استرجاعها، او التحكم فيما صار اليه انجرافها. واخذ يؤنب غفلته وسذاجته وكيف سمح لنفسه بشرب الماء بتلك الطريقة والدراهم في قبع جلبابه. مهيأة للسقوط. لماذا لم يأخذ الحيطة؟ انهال على نفسه بالشتائم. وعلى بلادته باقبح واشنع النعوت. وأخذ منه الانفعال والتوتر كل مأخذ، لدرجة كاد معها ان يصفع وجهه. ثم واصل طريقه الى السوق في عناد واصرار وهو يقول : ومع ذلك فانا ذاهب الى السوق - ان شاء الله - وفي نيتي ان اشتري

حائكا ممتازا لوالدتي - ان شاء الله - وانا على يقين بانني سارسم الفرحة على محياها المشرق الصبوح - ان شاء الله - لابد ان اجعلها تبتسم - ان شاء الله - منذ مدة ليست بالقصيرة وانا أذخر الدراهم لأشتري لوالدتي بسمة، اقصد حائكا، والحائك الجديد يحمل لمحياها البسمة - ان شاء الله - ان شاء الله.

ومن يومها وجحا يرد السلام على هذا النحو : وعليكم السلام ورحمة الله ان شاء الله. واذا سئل عن احواله قال : انا بخير ان شاء الله. واذا قيل له : الى اين؟ قال : الى بيتي او الى عملي ان شاء الله. واذا سألته : هل لديك دراهم؟ قال انها في جيبي ان شاء الله، ولدي منها ما يكفي حاجتي ان شاء الله. وانا في حالة يسر ان شاء الله.

ومن اجمل ما في حديث العامة انهم وحتى في حالة الحزم، والتأكد من الوفاء بالوعد أو العهد يقولون ان شاء الله كن على يقين سأكون وفيا بالتزاماتي. ان شاء الله..

ورد الامور كل الامور لمشيئة الله فضيلة المؤمنين، فنحن نريد، والله يريد. وارادته دائما فوق ارادتنا.

العالم «المجالس»

تحدثت في ورقة سالفة عن الحرفي أو العامل، او الامي الذي لا يقرأ ولا يكتب ولكنه متنور. متفقه بمجالسة العلماء

والفقهاء وأهل الفكر، ورجال الثقافة، يحسن الحديث في جل المواضيع ويجيد فن الاصغاء والاخذ والرد، لدرجة تجعل المتحدث أو المصغي اليه لا يصنفه ضمن قائمة الاميين. وهذا النموذج من الناس، هو ما يصطلح على تسميته بـ : «ذي الثقافة الشعبية» والناس بهذه الحيثية كثر في بلدنا. وهم منتشرون في جميع أنحاء المغرب. لا يقرأون ولا يكتبون. ولكنهم على المام كبير بالكثير الكثير من أمور الحياة. ثم انهم بالاضافة الى ذلك يتمتعون بالوعي والانتباه والبصيرة الشفافة اليقظة. ولكن مجالس هذه الورقة ليس هو ذلك الرجل الامي، انما هو العالم الفقيه كما حدثني عنه السيد محمد العطار حيث قال لي : ان بعض الناس من اعيان كبار العائلات من سكان مدينة فاس كانوا اذا احتفلوا بتخرج ابنائهم من جامعة القرويين لدى حصولهم على الشهادة «العالمية» يوجهونهم الى مدرسة اخرى، مدرسة الحياة. مدرسة الاحتكاك بعامة الناس. ويحثونهم على ضرورة بل وجوب التردد على الاحياء الشعبية، جميع الاحياء الشعبية من ادنى المدينة الى اقصاها، وفي مقدمتها ـ وبصفة خاصة ـ حي العشابين لما له من مواصفات وخصوصيات معروفة عند جميع سكان المدينة، والهدف هو : الاحتكاك بأصناف وفئات سكان هذه الاحياء، أو المترددين عليها لمعرفة جميع الالوان. والاشكال والانماط البشرية التي يتشكل منها مجموع سكان المدينة. كما يحثون ابناءهم على الاصغاء لما يدرج على السنتهم من الكلام للاستفادة من المحاورات الشعبية والانتباه لما فيها من مهارة في استخدام الالفاظ، ولما في اساليبهم من

ذكاء في اللعب بالكلمات. ولا بأس - في نظر بعض الاباء - من التصادم في بعض الحالات مع هؤلاء الناس، واستفزازهم اذا اقتضى الحال. وخصوصا الشداد، الغلاظ، القساة منهم، لقصد تفجيرهم والاستمتاع بكلامهم الجاف، الفظ الغليظ والذي يتسم في الغالب بالوقاحة والبذاءة، والعنف، والمفردات النابية المكشوفة قصد الاستيعاب والاستفاذة.

وذلك لأن قاموسهم اليومي الدارج حافل بكلمات غريبة وعجيبة، وغير موجودة في « القاموس المحيط » ولافي أي معجم من معاجم اللغة. ففي محاوراتهم العادية الفاظ خاصة، واشتقاقات خاصة. وتوريات واستعارات خاصة، هي من صميم ابتكاراتهم. ولهم في مجال نحتها واختراعها باع طويل.

ويرى الحكماء ان في محاولة اقتحام عالم اناس هذه الاحياء، وفهم لغتهم، واستيعاب استعاراتهم وتذوق مجازاتهم. وسبراغوار ذهنياتهم، والوصول الى جوهر عقلياتهم، في كل ذلك فائدة جمة لمن ينشد التعايش في مجتمع متحضر وقديما قالوا : « معرفة الرجال كنوز » وقالوا أيضا : « اللي ماعرفك خسرك » ومن هنا تبرز أهمية وجوب وحتمية معرفة الناس. والذي يعرف كيف يتعامل مع كل الاجواء ويتفاهم مع كل الناس.. ويعرف أيضا كيف يتكلم وقت الكلام وكيف يصغي ويحسن الاصغاء. لابد من ان يستفيد من تجربة وحكمة الآخرين. فيجب اذن على من يحسن فنون القول للآخرين ان يجيد فن الاصغاء لما يقول

الآخرون. وحتى من لهم في الناس وفي الاشياء وفي الاحداث وجهات نظر أخرى، أو لهم في الحياة ذاتها اسلوب مغاير وطرق في عيشها وفهمها مختلفة.

فالناس بصفة عامة امزجة وطباع مختلفة. ولهم احيانا عقليات و«گانات» وافكار تدعو للدهشة والاستغراب. ولكنها في الوقت نفسه تدعو للتفكير واعمال العقل. والخلاصة ان يحسن فنون فهم الناس، وافهامهم، ويملك القدرة على مساكنتهم ومعايشتهم. ذلكم هو: المتساكن الامثل في المجتمع الامثل.. وعلى ما قد يكون في هذا المجتمع من تناقضات.

فعلى العالم اذن، وقد انهى مرحلة تعليمه ان يتجه الى مجتمعه، فيخالط الناس ويجالسهم ويحاول الاستئناس بمحاورتهم، ومناقشتهم ليستفيد كي يفيد.

وفي هذه الاحياء الشعبية أندية كبيرة هي عبارة عن مقاهي شعبية تقوم فيها الحصيرة مقام الكراسي والطاولات. ويتردد عليها أقطاب «الحيا. لا» أناس. لا يدينون بحياء أو حشمة. «الحيال» ومفردها «الحايل» والحايل هو ذلك الفتى المفتون بذاته، والمغرور بشبابه، التائه المباهي بصحته وعضلاته المفتولة. والذي يسير في الشوارع بخيلاء وعجرفة، وهو يتمايل مستعرضا قوته وعضلاته. ويمشي وكل حركاته ونظراته تقول بتحد صامت وواضح : أهناك من هو قادر على منازلتي. انني اتحدى. اما اذا تكلم. فكلماته في معظمها سباب وقح، وشتيمة بذيئة، وألفاظ جافة، فظة غليظة. ويقصد بها استفزاز الناس عنوة. «جبدانه على عيدانه» كما

تقول العامة. ثم انه لا يتحرج أو يجد غضاضة في وصف الناس ونعتهم جهرا بالجبن. والخوف والتخاذل. وجميع الالقاب المشينة الوسخة. وزيادة على ذلك وامعانا في التحدي، يهدد ويتوعد من يستنكر من الناس هذه التصرفات الحمقاء الهوجاء - ولو في حالة الاستنكار الصامت الذي هو أضعف الايمان - يهددهم بالويل والتبور وعواقب الامور. و«الحايل» عند عامة الناس هو الفتى القوي بدنيا. هو الفتى المشاكس المشاغب، الصلف الجلف، عديم المروءة، قليل الحياء. ولذلك لم يكن من المستغرب أن تجد من هؤلاء «الحيال» المتسكعين. الصعاليك. «خاطيين شغلهم» كما يصفهم الناس. من كان سليط اللسان رديء العبارات. عدواني السلوك. لا يسلم من أذاه رائح ولاغاد. ولا يتحرج في الوقوف وسط الطريق للتسول بطريقة استفزازية يشحذ بأسلوب كله تهديد ووعيد، فلا يملك الخائف من المارة. أو المسالم منهم الا أن «يتصدق» عليه بما طلب منه دون جدل أو نقاش ومن هؤلاء الصعاليك «السلاكيط» من كان يأتي كل الموبقات بلا خجل ولا حياء بل بعفوية وتلقائية وكل بساطة. وكأن هذه التصرفات الشاذة مسلم بها، واذا لم تستحي فافعل ما شئت.

وأعود للكلام عن هؤلاء الناس، هذه النماذج البشرية وكلامهم أو «غوصهم» ورموزهم وشطحات اللغة العامية التي تتداول بينهم وذلك هو ما يعنيني بالدرجة الأولى في هذه الورقة، لأن الكلام عندهم مهارة وفن وخبرة واجتهاد وطرق استعمال الكلمات تخضع لمعطيات خاصة ومعجم أكثر خصوصية ففي كلامهم اليومي والعادي : الواضح والمرموز،

وفيه ما يفهم بوجهه الظاهر وفيه ما يفسر بخلفيات شديدة الدقة في دلالتها وقد تبدو لغير العارف غامضة مبهمة ولكنها بالنسبة لهم واضحة ميسورة الفهم وقد يضعونك تحت طائلة «غوصهم». والغوص كناية عن لغة خاصة بهم سافرد لها حيزا آخر في ورقة أخرى فيتكلمون عنك «يبيعوك ويشريوك وأنت ما سايق لراسك خبر» تبصر ولا ترى تسمع ولا تفهم ويلعب المجاز والاستعارة دورا خطيرا في لغتهم ومحاوراتهم التي لا تخلو من لقطات فنية ذكية وفي منتهى الجمال بالرغم مما يكون فيها من فظاظة وغلظة.

ولهذا كنت تجد من الناس من ينصح العلماء الشباب، ويخاطبهم على هذا النحو : أنت الآن عالم فقيه ودماغك ملئ بالعلوم والأفكار والنظريات فاتجه الى الدروس العملية لتتعلم كيف تعارك الحياة وستجد ضالتك المنشودة في الأحياء الشعبية فالتمس الحكمة من أقوال الناس ولتكن وجهتك عامة الناس من جميع المشارب والفصائل والفئات فحاول أن تحتك بهذه الأوساط بلا تأفف ولا تعالٍ لتتعلم منهم أشياء كثيرة ومفيدة.

وهذا ماكان يعطي لبعض العلماء ميزة فريدة ونكهة علمية فقهية شعبية خاصة. تجعل منه العالم المجالس أو الفقيه المجالس. وبحكم هذه المجالس فهو على بينة من أمر الحياة في مجتمعه ومحيطه. وذلك لأن معايشة الناس كافة الناس والتعامل معهم اخذا وعطاء توسع آفاق العالم. فاذا

تكلم عنه متحدث قال : ان الفقيه فلان عالم جليل ومجالس نبيه حكيم انه حقا عالم وعلى بال : « مساسي مكاسي » « فقي ونقي ويعرف ما يرقي ». كما انهم يقولون في وصف دهائه وحذاقته: « اللي كان طباخ وصبح فقيه اللي ف المطبخة يعرفه » ومعنى ذلك ان هذا العالم الفقيه يجيد الى جانب لغة القرويين لغة العشابين والعطارين والنواعريين والنجارين والعدوة واللمطيين وحي الاندلس وبين المدن والصفاح وسويقة بن صافي هذه السويقة التي كان يقال عنها وعن انسها المتصفين بالذكاء والفطنة الخارقة، ان الشيطان نفسه يأخذ الحيطة قبل ان يعبرها أو يمر بجانبها والطالعة الصغيرة والطالعة الكبيرة والدوح وواندو وقصبة النوار وقصبة بن دباب والبلاغمة وللاغريبة وفران ضويو بفاس الجديد وظهر المهراز.

ان العالم الفقيه الذي يستطيع محاورة سكان هذه الاحياء تتكون لديه الملكة والقدرة على مجادلتهم بالتي هي احسن واقوم وايضا بالتي هي اقوى وأفحم. هذا العالم لديه دائما أجوبة عديدة ومتنوعة للسؤال الواحد وبلغة « الغوص » اذا اقتضى الحال اي بالمصطلحات التي يتحدث بها اناس هذه الاحياء.

فاذا كتب لهذا العالم المخضرم ان يصبح قاضيا لا يتعذر عليه اطلاقا الفصل في اعقد القضايا واعوص المشاكل التي تواجهه بمهارة وحنكة، فاذا اصدر حكما أو فصل في أمر كان في حكمه عادلا، وفي فصله ماهرا ومقنعا لا يجادل في حكمته

وحكمه وعدالته مجادل، كما لا يتعذر عليه فهم الناس ومخاطبتهم على قدر ما يفهمون وباللغة والرموز التي يستعملون. ويتحدث إليهم من مواقعهم لامن البروج العاجية. ففي النزول الى الشارع والتجول بين الناس والتقاط ما يدور بينهم من كلام بعفوية وتلقائية ورصد ردود الفعل عندهم في القول والفعل، في الحركة والملامح، والاسئلة والاجوبة، وطريقة الاخذ والرد، والجدل والمناقشة، والتحدث الى ابسط الناس بكل بساطة وبتواضع حقيقي صادق غير مغشوش ولا مزيف ولا أثر فيه للافتعال، والتصنع.

كل ذلك كان يعطي للعالم الفقيه مصداقية المرشد، والمفتي والموجه وأمين اسرار الناس الذي يرجع اليه كل الناس للاستشارة وأخذ الرأي والتماس النصح فيما يعرض لهم من مشاكل الحياة.

وعلى هذا فالعالم المجالس أقدر من غيره على فهم أمور الناس، والاحتكاك يذكي المعرفة. والثقافة بمفهومها الاكاديمي لا تغني عن الثقافة الشعبية ولا تلغيها فالثقافة الشعبية هي جوهر الحكمة والحكمة ضالة المؤمن..

فاس 1993/11/19

أحمد الطيب العلج

مطبعة ساليماكراف ـ سطات ـ
الايداع القانوني : 1994/836

Salimagraph

مطبعة ساليماكراف